AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00855 4168

الإسلام والصهيونية

FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهر

BP
163
M82
1922

الإسلام والنصرانية
مع
العلم والمدنية

بقلم حكيم الاسلام . الاستاذ الامام

الشيخ محمد عبده

قدس الله روحه

وهي مقالات نشرت في مجلة « المنار » الاسلامي

لصاحبها

السيد محمد رشيد رضا

حقوق الطبع محفوظة له

الطبعة الثالثة بمطبعة المنار بمصر
سنة ١٣٤١

مقدمة ناشر الكتاب

C10
م ٤٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

« أُدْعُ الى سبيلِ رَبكَ بالحِكمَةِ والموعظة الحسَنةِ وجادِلهمْ بالتي هي أَحسنُ . إن ربَّكَ هُو أعلمُ بِمَنْ ضلَّ عنْ سبيلهِ وهو أعلم بالمهتدين »

ظهرت في العالم مدنيات ثم خفيت ، ودُرست فيها العلوم والفنون ثم دَرست ؛ وصلحت أحوال الانامي ثم فسدت، وطلعت فيهم أقمار الهداية الدينية ثم خسفت، ولم يزل الناس في قيام وقعود، وهبوط وصعود، والامم في تلاش وفناء ، ونشوء وارتقاء، حتى استعد المجموع في جملته للرقيّ العام ، فمنحه الله تعالى دين الاسلام ،

جاء الاسلام والعالم كله في تأخر من جميع الوجود أو الجهات ـ من جهة الدين، من جهة العلم ، من جهة المدنية ، من جهة السياسة ، فلم يمر قرن واحد حتى جدد للعالم كله دينا قيما ، وعلما محكما، ومدنية سعيدة، وسياسة رشيدة ، ونشر ذلك كله في مشارق الارض ومغاربها بقوة الحق ، وسرعة البرق، فتغير به وجه الارض ونفخ في الانسان روحا جديدا أعطاه من جراثيم الحياة مالا يقبل الفناء، مادامت الارض والسماء (١)

(١) بينا ان أركان الاصلاح الاسلامي غير قابلة للهدم في مقالات

366925

ينبوع تفجر في أرض وفاض ماؤه على غيرها، فأحيا الارض بعد موتها ولكن القائمين على حراسته وتعاهده وضعوا فوقه أنقاضا من خرائب جيرانهم فغيض الماء وما بقي منه صار مستنقعات تجتوى ، لم يلبث بعد ماغاض أن فاض منه شيء في مواضع أخرى فانتفع أهلها به وحافظوا عليه، ولكن الاكثرين منهم لا يعرفون من أين جاءهم كما ان أكثر أهل الينبوع المنتسبين اليه بالاسم لا يعرفون أن ذلك الماء الذي تفجر في تلك المواضع فأنشأ أهلها به حدائق ذات بهجة هو من ماء ينبوعهم ، وانهم لو أزالوا عنه تلك الانقاض لفاض ورجع اليهم به خصبهم ونماؤهم كاحسن ما كان ، إذا هم تعلموا من غيرهم كيف يستخدم الماء للاحياء

ذلك مثل المسلمين اليوم مع الامم الغربية الحية الراقية : أخذ الغربيون من الاسلام كل أصول الاصلاح الذي هم فيه، وهم يقولون ان الاسلام عقبة في طريق كل اصلاح . يقولون للمسلمين ان ماءنا

متعددة نشرناها في مجلدات المنار كمقالات « الاصلاح الديني » والمقالة التي فاتحتها « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » ومقالات « سلطة مشيخة الطرق الروحية » وفيها الكلام على تقييد الاسلام السلطتين السياسية والدينية وجعل الناس سواء . وكل هذا في المجلد الاول . ومقالة « الجنسية والديانة الاسلامية » في المجلد الثاني ومقالة (اعادة مجد الاسلام) ومقالات (مدنية العرب) في المجلد ٣ الخ وكمقالات « الحكومة الاسلامية والقضاء في الاسلام » في المجلد الرابع

صاف نقي يحيي البلاد والعباد، وماء كم آسن أجاج أحدث مستنقعات أهلكت الحرث والنسل . فكيف يستوي الماآن . وقد اختلف الاثران ؟ منهم من يقول هذا معتقدا ، ومنهم من يقوله منتقدا ، ونحن ساكتون عنهم ، لاننا جاهلون بأنفسنا وبهم

(ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) ويظهر الحق من الباطل ، فتقوم الحجة على الجاهل بدينه ونفسه ، والمكابر لوجدانه وحسه (لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرى) فيرجعوا الى أصول دينهم وهو الاولى بهم والاحرى ، فقد أعدهم بنوائب الزمان ، وصروف الحدثان ، لان يعترفوا بذنبهم ، وينيبوا بالتدريج الى ربهم ، اذ ظهر فيهم علماء ربانيون ، وأطباء روحانيون ، يعرفونهم بحقيقة الداء ، ويصفون لهم الدواء ، وما طلب الانسان بلسان استعداده شيئا من مولاه ، إلا تفضل عليه به وأعطاه إياه (١)

لهذا سخر الله للمسلمين حكيما من الاعلام ، وإماما من أئمة الاسلام ، يطبّ لدائهم ، ويجمع ما تفرق من آرائهم ، وقد كتب في هذه الايام كتابة جليلة في العلم والمدنية ، بالنسبة الى الديانتين النصرانية والاسلامية ، رد فيها على أحد كتاب المسيحيين قوله : ان المسيحية كانت أكثر تسامحا مع العلم من الاسلام ، وان الاسلام أكثر اضطهادا للعلم والفلسفة من النصرانية . وبين في آخر ما كتبه

(١) راجع مقالة «الاصلاح والاسعاد. على قدر الاستعداد» في المجلد الرابع من المنار

حال المسلمين السوءى وعدم موافقتها لما تقتضيه طبيعة دينهم ، فبرأ الاسلام وسلفه من الملام ولـكنه لم يبرىء المسلمين المتأخرين بل دلهم على حقيقة دائهم وهداهم الى طريقة معالجته والخروج منه باذن الله تعالى . ولعمري انه أنذر فأعذر، وبرئ من وعيد الكتمان (فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها)

الكاتب المسيحي هو (صيفنا) الفاضل صاحب الجامعة: وقد تكلم في المقابلة بين الدينين المسيحي والاسلامي بالنسبة الى العلم والفلسفة في ترجمة ابن رشد . وقد ساءت تلك الترجمة من قرأها من المسلمين لهذه المقابلة ولمسئلتين أخريين أهمهما عزو انكار الاسباب الى علماء الكلام ، والثانية ما تضمنته الترجمة من الحكم بكفر ابن رشد فيلسوف المسلمين الاكبر في الاندلس . وقد رد حكيمنا على الجامعة في كل ما أخطأت به من الكلام في فلسفة ابن رشد والمتكلمين، ومن المقابلة بين الديانتين ونشرنا ذلك كله في المنار .

فأما الكلام في فلسفة ابن رشد ومذهب المتكلمين فهو لا يكاد يفيد الا الخواص من العلماء والمتكلمين . وأما الكلام في المقابلة بين الدينين من حيث أثرهما في العلم والمدنية فهو يفيد العوام والخواص ، بل هو الشفاء لما في صدور الناس ، والضياء للباحثين في (حنادس) الحيرة والوسواس، لهذا رأيت أن أجمعه في كتاب مستقل وأطبعه ليعم نفعه[1]

(١) قد بدا لنا أن نضيف الى هذه الطبعة مارد به الاستاذ رحمه الله تعالى على مجلة الجامعة في فلسفة ابن رشد أيضا لما بيناه في مقدمتها

واستأذنت الكاتب في ذلك فأذن فأنفذت ، وعلى الله توكلت .

وأحب أن يكون حظ كل مسلم من هذا الكتاب أن يجتهد في الاخذ بأصول دينه المشروحة فيه، وأن يقتدي بكرام سلفه في جدهم واجتهادهم وسيرتهم مع المخالفين لهم في الاعتقاد، ولا يكون حظهم الافتخار بأن ديننا جامع لخيري الدنيا والآخرة ، وان سلفنا كانوا خير أمة أخرجت للناس، وان غيرنا ليس كذلك، لان كل هذا حجة علينا لالنا ، وهو لا يغني عنا شيئاً في دنيانا ولا في آخرتنا . «فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب ،

محمد رشيد رضا

منشىء المنار

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الاول في النصرانية

اضطهاد العلم والمدنية في النصرانية

قال الاستاذ الامام الحكيم

خرج انطون

ذكرت الجامعة في الجزء الثامن من السنة الثالثة في سياق الكلام على ما جرى لابن رشد أن للناس آراء في : هل الدين المسيحي أوسع صدرا في احتماله مجاورة العلم والفلسفة، أو أن الدين الاسلامي هو الارحب خلقا والاوسع حلما من الدين المسيحي في قبول أهل النظر في الكون اذا نزلوا بداره ، ولاذوا بجواره ؟ وذكرت أن للقائلين بتسامح الدين المسيحي مع العلم وأهله دون الدين الاسلامي أن فولتير وديدرو وروسو ورنان قالوا فيما يضاد الدين ما قالوا ولم يصابوا بضرر، وابن رشد لم يقل شيئا سوى أنه قرر ما قال أرسطو وأوضحه مع تصريحه بسلامة اعتقاده ومع ذلك أهين وبصق على وجهه . وللقائلين بسعة حلم الاسلام أن الاسلام لم يحكم باحراق أحد لمجرد الزيغ في عقيدته وكم حكمت المسيحية بذلك

ثم جعلت أهل الرأي الاول آخر من يتكلم وقالت : « فيرد

عليهم الاولون بقولهم : هل يجب أن يكون التسامح مع القريب فقط أم مع القريب والغريب معا ؟ ثم ألا تذكرون الحروب والفتن التي قامت بين شعوب المسلمين وحكامهم بسبب الاعتقادات الدينية فأضعفت أمتهم ، وفرقت كلمتهم ؟ فهل يجوز أن تسموا محاربة شخص واحد وإعدامه (محاربة للانسانية) ولا تسموا كذلك محاربة شعب لشعب وأمة لامة » اه

ثم قالت الجامعة إنها لا تفصل بين القولين ، ولكنها فصلت فيهما فصلين ، الاول في قولها : « إنا نرى أن السلطة المدنية في الاسلام مقرونة بالسلطة الدينية بحكم الشرع لان الحاكم العام هو حاكم وخليفة معا وبناء على ذلك فان التسامح يكون في هذه الطريقة أصعب منه في الطريقة المسيحية فان الديانة المسيحية قد فصلت بين السلطتين فصلا بديعا مهد للعالم سبيل الحضارة الحقيقية والتمدن الحقيقي وذلك بكلمة واحدة «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» وبناء على ذلك فان السلطة المدنية في هذه الطريقة اذا تركت للسلطة الدينية مجالا للضغط على حرية الافراد من أجل اعتقاداتهم الخصوصية فضلا عن قتلهم وسقي الارض بدمائهم البريئة فانها تجني جناية هائلة على الانسانية ، وعلى ذلك لا يكون في هذه الطريقة من التسامح أكثر مما في تلك اذا بدا منها نقص ولو كان هذا النقص أخذ من نقص شقيقتها لانه لا نقص أعظم من نقص القادر على التمام » والفصل

الثاني في قولها . « ان العلم والفلسفة قد تمكنا الى الآن من التغلب على الاضطهاد المسيحي ولذلك نماغرسهما في تربة أوربا وأينع وأثمر التمدن الحديث ولكنهما لم يتمكنا من التغلب على الاضطهاد الاسلامي وفي ذلك دليل واقعي على أن النصرانية كانت أكثر تسامحا » اهـ

﴿ الجواب الاجمالي ﴾

واني أعجل في الجواب بما يلاقي هذين الحكمين إجمالا : أما الاول فان كان الانجيل فصل بين السلطتين بكلمة واحدة فالقرآن قد أطلق القيد من كل رأي بكلمتين كبيرتين لا كلمة واحدة . قال في سورة البقرة (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم) وقال في سورة الكهف (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)

وأما الثاني فأسأل الجامعة في جوابه : أين الاضطهاد الواقع على العلماء اليوم عند المسلمين ؟ وأين أولئك العلماء المضطهدون ؟ وأريد بالعلماء أولئك الذين يساوون من ذكرتهم من فولتير وديدرو وروسو وامثالهم . وكيف ساغ لها أن تقول ما تقول وهي في أرض مصر ومصر بلاد اسلامية وحالها كما ترى ؟ فاذا أرادت شاهدا على حال المسيحية والعلم فلتدر بنظرها اليوم على أسبانيا ولتقف برهة من الزمان ثم لتحكم . يمكنها أن تعد من طلبة العلوم المسلمين مئين

في مدارس المسيحيين من جزويت وفرير وأميركان وهي مدارس دينية خصوصا مدارس الجزويت. فهل يمكنني أن أجد طالبا واحدا مسيحيا في مدرسة دينية اسلامية يباح الدخول فيها لكل طالب علم من أي ملة ؟ لا نجد الا قليلا منهم في مدارس الحكومة لعلمهم أنها مدارس رسمية لم يقم بناء تعليمها على الدين . فهل سمع أن والدا اضطهد لانه بعث بولده الى مدرسة مسيحية يديرها قسوس مسيحيون ؟ ألا يعد هذا من تسامح الاسلام مع العلم اليوم ؟ (١)

لو لا أن موضوع كلامي محدود باعتبار التسامح بالنسبة الى العلم والفلسفة وحدهما لذكرت لصاحب الجامعة انه يوجد في بلاده طائفتان تعد آحادهما بالالوف وتزعم كل منهما أن لها نسبة الى الاسلام وهي تعتقد بما لا يتطبق على أصل من أصوله حتى أصل التوحيد والتنزيه عن الحلول ولا تقول بفرض من فروضه المعلومة منه بالضرورة . وأجمع فقهاء الامة على أنهما من قبيل المرتدين والزنادقة لا تؤكل ذبائح أفرادهما ولا يباح لهم أن يتزوجوا من المسلمات وإنما اختلفوا في قبول توبة من تاب منهم، ومن العلماء من قال لا تقبل توبته . وهم مع ذلك عائشون بجوار المسلمين ومضى عليهم ما يزيد على تسعمائة سنة وقد كانوا تحت سلطان المسلمين

(١) مثله اشتراك المسلمين فى الجرائد المسيحية وعدم اشتراك النصارى فى الجرائد الاسلامية الا نادرا

والاسلام في أوج القوة . دخلوا في حكم الاتراك وهم هم أيام كان ملك فرنسا يستنجد بملكهم وكانت عساكرهم على أسوار فينا . كان أولئك الذين يراهم المسلمون قد خرجوا من دينهم، وأسروا عقيدة تناقض عقيدتهم، قدظهروا بأعمال تضاد أعمالهم وهم جيرانهم وتحت أيديهم وفي مكنتهم محوهم، ومع ذلك عاشوا الى اليوم ولهم أحبة وأصدقاء بين المسلمين . وللمسلمين بينهم مصافون وأوداء ، فهل عهد مثل ذلك عند المسيحيين ؟

غير أن موضوع قولي محدود كما قلت فلا أخرج عنه وأراني نطقت فيه بكلمتي المجملة . ولكن لا يكفي لبيان ما عرّضت به الجامعة في قولها « هل يجب أن يكون التسامح مع القريب فقط أو مع القريب والغريب الخ » ولا لتحقيق الحق فيما حكمت به في حكمها الا تفصيل تعرض فيه حالة الدينين من العلم تحت نظر القارىء على وجه يمكن معه الحكم عن فهم ، ولا تلتبس فيه الحقيقة بالوهم

﴿ الجواب التفصيلي ﴾

أرى الجامعة جاءت في كلامها بأربعة أمور آتي بها على حسب ترتيب النسق في تعبيرها . (الاول) ان المسلمين قد تسامحوا لاهل النظر منهم ولم يتسامحوا لمثلهم من ارباب الاديان الاخرى (الثاني) ان من الطوائف الاسلامية طوائف قد اقتتلت بسبب

الاعتقادات الدينية (الثالث) ان طبيعة الدين الاسلامي تأبى التسامح مع العلم وطبيعة الدين المسيحي تيسر لاهله التسامح مع العلم (الرابع) ان ابناء ثمر المدنية الحديثة انما تمتع به الاروبيون ببركة التسامح الديني المسيحي . فلا بد لي من الكلام على كل واحد من هذه الامور الاربعة وابتدىء منها بالثاني لقلة الكلام عليه

نفي القتال بين المسلمين لاجل الاعتقاد

لم يسمع في تاريخ المسلمين بقتال وقع بين السلفيين (الآخذين بعقيدة السلف) والاشاعرة مع الاختلاف العظيم بينهما ولا بين هذين الفريقين من أهل السنة والمعتزلة مع شدة التباين بين عقائد أهل الاعتزال وعقائد أهل السنة سلفيين واشاعرة — كما لم يسمع بان الفلاسفة الاسلاميين تألبت لهم طائفة وقع الحرب بينها وبين غيرها . نعم سمع بحروب تعرف بحروب الخوارج كما وقع من القرامطة وغيرهم وهذه الحروب لم يكن مثيرها الخلاف في العقائد وانما اشعلتها الآراء السياسية في طريقة حكم الامة ولم يقتتل هؤلاء مع الخلفاء لاجل أن ينصروا عقيدة، ولكن لاجل أن يغيروا شكل حكومة . وما كان من حرب بين الامويين والهاشميين فهو حرب على الخلافة وهي بالسياسة أشبه ، بل هي أصل السياسة

نعم وقعت حروب في الازمنة الاخيرة تشبه أن تكون لاجل

العقيدة وهي ماوقع بين دولة ايران والحكومة العثمانية وبين الحكومة العثمانية والوهابيين، ولكن يتسنى لباحث بأدنى نظر أن يعرف انها كانت حروبا سياسية ويبرهن على ذلك بالولاء المتمكن بين الحكومتين اليوم مع بقاء الاختلاف في العقيدة بين الحكومة العثمانية وابن الرشيد أمير الوهابيين (١)

وأما الحروب الداخلية التي حدثت بعد استقرار الخلافة في بني العباس واضعفت الامة وفرقت الكلمة فهي حروب منشؤها طمع الحكام وفساد اهوائهم، وحبهم الاستئثار بالسلطان دون سواهم. ومصدر ذلك كله جهلهم بدينهم وارتخاء حبل التمسك به في ايديهم، واكبر داء دخل على المسلمين في همهم وعقولهم انما دخل عليهم بسبب استيلاء الجهلة على حكومتهم. أقول « الجهلة » واريد أهل الخشونة والغطرسة الذين لم يهذبهم الاسلام ولم يكن لعقائده تمكن من قلوبهم. ولو رزق الله المسلمين حاكما يعرف دينه ويأخذهم باحكامه لرأيتهم قد نهضوا والقرآن الكريم في إحدى اليدين وماقرر الاولون وما اكتشف الآخرون في اليد الاخرى، ذلك لآخرتهم وهذا لدنياهم، وساروا يزاحمون الاوربيين فيزحمونهم

مالنا وللحكام نعرض لهم؟ الذي علي أن أقول ولا أخشى منازعا: إنه لم تقع حرب معروفة بين المسلمين للحمل على عقيدة من العقائد أو على تركها، على أن هذا الامر الذي جاءت به الجامعة والجأتنا

(١) لعل الاولى أن يقال: من امراء الوهابيين

الى الكلام فيه خارج عن الموضوع بالمرة، لان الكلام في التسامح الديني مع العلم لا في تسامح عقيدة مع عقيدة أو دين مع دين، والا لاوردنا لها من حروب الطوائف المسيحية بعضها مع بعض وحروبها مع غيرها مايستغرق أجزاء الجامعة بقية هذه السنة اذا أوجزنا ما استطعنا.

هل اذكرها بما كان يقع في القسطنطينية من سفك الدماء بين الارثوذكس والكاثوليك على عهد القياصرة الرومانيين ؟ هل اذكرها بحادثة برتلمي سنتهلير التي سفك فيها الكاثوليك دماء اخوانهم البروتستانت وأخذوهم في بيوتهم على غرة وقتلوهم نساء ورجالا واطفالا ؟ بماذا اذكر الجامعة من أمثال هذه الوقائع التي اسود لها لباس الانسانية، وتسلبت لحدوثها البشرية ؟ هل يمكن لاحد أن يروي حادثة مثلها وقعت بين شعوب المسلمين بعضهم مع بعض لخلاف في العقيدة مهما عظم الاختلاف

تساهل المسلمين مع أهل العلم والنظر من كل ملة

ثم أرجع الى الامر الاول من الامور الاربعة لان الكلام عليه أقل منه على الامر الثالث . وانني لاأستدل على رعاية الاسلام على الحكماء من الملل غير المسلمة بقول كاتب مسلم وانما ارجع في جميع ما اذكر الى كتب المؤرخين والفلاسفة من المسيحيين واذكر اسماء جماعة من المسيحيين وغيرهم بلغوا من الحظوة عند الخلفاء وعامة

المسلمين وخاصتهم مالم يبلغه غيرهم

قال المستر درابر أحد المؤرخين وكبار الفلاسفة من الاميركان « ان المسلمين الاولين في زمن الخلفاء لم يقتصروا في معاملة أهل العلم من النصارى النسطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام ، بل فوضوا اليهم كثيرا من الاعمال الجسام، ورقوهم الى المناصب في الدولة حتى إن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنامسنيه» (هو يوحنا ابن ماسويه الشهير) وقال في موضع آخر : « كانت ادارة المدارس مفوضة مع نبل الرأي وسعة الفكر من الخلفاء الى النسطوريين تارة والى اليهود تارة اخرى . لم يكن ينظر الى البلد الذى عاش فيه العالم ولا الى الدين الذي ولد فيه بل لم يكن ينظر الا الى مكانته من العلم والمعرفة . قال الخليفة العباسي الاكبر المأمون : « الحكماء هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده لانهم صرفوا عنايتهم الى نيل فضائل النفس الناطقة وارتفعوا بقواهم عن دنس الطبيعة هم ضياء العالم وهم واضعو قوانينه ولولاهم لسقط العالم في الجهل والبربرية » وقال في موضع آخر : « ان العرب قد زحفوا بجيش من اطبائهم اليهود ومؤدبى أولادهم من النسطوريين ففتحوا من مملكة العلم والفلسفة ماأتوا على حدوده بأسرع مما أتوا على حدود مملكة الرومانيين » ولست في حاجة الى ذكر ماأسس الخلفاء والملوك من المدارس، وأقاموا من المراصد، وماحشدوا من الكتب الى المكاتب، لان هذا

خارج عن بحثنا الآن وسيرد عليك شيء منه فيما بعد

طائفة من الحكماء والعلماء الذين حظوا عند الخلفاء

أذكر ممن اشتهر من الحكماء بالحظوة عند الخلفاء جيورجيس بن بختيشوع الجنديسابوري طبيب المنصور كان فيلسوفا كبيرا علت منزلته عند المنصور لانه كانت له زوجة عجوز لا تشتهى فأشفق عليه المنصور وانفذ اليه بثلاث جوار حسان فردهن وقال : ان ديني لا يسمح لي بأن أتزوج غير زوجتي ما دامت حية : فأعلى مكانته حتى على وزرائه ولما مرض أمر المنصور بحمله الى دار العامة وخرج اليه ماشيا يسأل عن حاله فاستأذنه الحكيم في رجوعه الى بلده ليدفن مع آبائه فعرض عليه الاسلام ليدخل الجنة فقال : رضيت أن أكون مع آبائي فى جنة أو نار : فضحك المنصور وأمر بتجهيزه ووصله بعشرة آلاف دينار (وهو المنصور الدوانيقي المشهور بالامساك وكزازة اليد) وأوصى من معه بحمله اذا مات في الطريق الى مدافن آبائه كما طلب. ثم سأله عمن يخلفه عنده فأشار الى عيسى بن شهلاثا أحد تلامذته فأخذه المنصور مكان جيورجيس فطفق يؤذي القسوس والبطارقة ويهددهم بمكانه عند الخليفة ليسألهم رغائبه فشعر الخليفة بذلك فطرده

وممن حظي عند المنصور نوبخت المنجم وولده أبو سهل وكانا فارسيين على مذهب الفرس ثم كانت ذرية مسلمة لابي سهل وكانوا جميعا منجمين لهم شهرة في علوم الكواكب فائقة

وممن حظي بالمكانة العليا عند الخليفة المهدي تيوفيل بن توما النصراني المنجم وكان على مذهب الموارنة من سكان لبنان . وله كتب في التاريخ جليلة ونقل كتاب أميروس الى السريانية بأفصح عبارة

وممن ارتفع شأنه عند الرشيد من الفلاسفة بختيشوع الطبيب وجبرئيل ولده ويوحنا بن ماسويه النصراني السرياني . ولاه الرشيد ترجمة الكتب القديمة طبية وغيرها وخدم الرشيد ومن بعده الى المتوكل . وكان يعقد في داره مجلساً للدرس والمناظرة ولم يكن يجتمع في بيت للمذاكرة في العلوم من كل نوع والآداب من كل فن مثل مايجتمع في بيت يوحنا بن ماسويه

وممن علا قدره في زمن المأمون يوحنا البطريق مولى المأمون أقامه كذلك أمينا على ترجمة الكتب من كل علم من علوم الطب والفلسفة . وكذلك ارتفع شأن سهل بن سابور وشابور ابنه وكانا نصرانيين . وولي سابور بن سهل بيمارستان جنديسابور

وكان سلمويه بن بنان النصراني طبيبا عند المعتصم ولما مات جزع عليه جزعا شديدا وأمر بأن يدفن بالبخور والشموع على طريقة النصارى

وكان بختيشوع بن جبرئيل عند المتوكل يوما فأجلسه بجانبه وكان عليه دراعة حرير رومية بها فتق فأخذ المتوكل يحادثه ويعبث بالفتق حتى وصل الى النيفق (وهو ما اتسع من الثوب) ودار

الكلام بينهما حتى سأله المتوكل: بماذا تعلمون ان الموسوس (المصاب بخبل في عقله) يحتاج الى الشد ؟ (١) فقال بختيشوع: اذا عبث بفتق دراعة طبيبه حتى بلغ النيفق شددناه. فضحك المتوكل حتى استلقى

وفي أيام المتوكل اشتهر حنين بن اسحق النصراني العبادي وهو من أشهر مترجمين لكتب أرسطو وغيره وامتحن المتوكل صدقه فظهرت عزيمة لاتفل فأقطعه اقطاعات واسعة. وكان قد عرف بفصاحة العبارة وحسن الترجمة في زمن المأمون وهو فتى فكلفه بترجمة الكتب وكان يعطيه وزن ما يترجم ذهبا. وكانت بينه وبين الطيفوري النصراني محاسدة أفضت الى طلب الحكم على حنين في مجلس الاساقفة بالحرم من الكنيسة فمات غما لاضطهاد أهل طائفته له مع عزته وعلو قدره عند الخليفة وهذا الطيفوري أيضا كان من المقربين عند الخلفاء

وممن ارتفع شأنه عند الخلفاء والخاصة والعامة في زمنه أيام خلافة الراضي متى بن يونس المنطقي النصراني النسطوري كان متفننا في جميع العلوم العقلية أخذ عنه أبو نصر الفارابي وانتهت اليه الرئاسة في بغداد وكان من أهل دير قنى ونشأ في مدرسة مار ماري وقرأ على روفايل وبنيامين الراهبين اليعقوبيين

ومن المقربين عند الخلفاء قسطا البعلبكي من فلاسفة دولة

(١) يعني بالشد هنا ايثاق المجنون بالحبل حتى لا يؤذي الناس.

الاسلام وهو نصراني طلبه الخلفاء الى بغداد لاجل الترجمة ثم يحيى ابن عدي بن حميد بن زكريا المنطقي انتهت اليه الرئاسة ومعرفة العلوم الحكمية في وقته وقرأ على متى بن يونس وعلى أبي نصر الفارابي

ومنهم أبو الفرج بن الطيب فيلسوف عالم . قالوا كان كاتب الجاثليق ومتميزا في النصارى ببغداد وكان يقرىء صناعة الطب في البيمارستان العضدي وكان معاصرا للشيخ الرئيس ابن سينا والرئيس يمدح طبه ولا يحمد فلسفته وله كلام فيه

وممن كانت له المكانة الرفيعة عند الخلفاء والخاصة والعامة ثابت بن قرة الحرّاني الصابىء من طائفة الصابئين المعروفة وتربى في بيت محمد بن موسى بن شاكر الفلكي المشهور وبلغ في علوم الفلسفة مبلغا لم يدانه فيه غيره وله تآليف كثيرة في المنطق والطب والرياضيات وبلغ عند المعتضد مقاما تقدم فيه عنده على وزرائه . وولد ثابت هذا سنة احدى عشرة ومائتين بحران . ثم كان ابناه ابراهيم وسنان على قدم أبيهما . ومن حفدته أبو الحسن ثابت بن قرة . وكان ثابت وابراهيم وسنان صابئين ولهم من المنزلة ماعلمت ومدحهم كثير من شعراء المسلمين وهم صابئة

ماذا أعد للجامعة من الفلاسفة والحكماء من الملل المختلفة الذين وسمهم صدر الاسلام ، ولم يضن عليهم بالرعاية والاحترام ، هل تريد أن أتمم لها الكلام بذكر كثير من فلاسفة الاسلام المسلمين

الذين نالوا أسمى الدرجات وأعلى المقامات عند الخلفاء والملوك ؟ هل أنا في حاجة الى ذكر فيلسوف الاسلام أبي يوسف يعقوب الكندي وهو بصري الاصل ابن الامير اسحق الذي كان أميرا المهدي والرشيد على الكوفة وهو من ذرية الاشعث بن قيس أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عالما بالطب والفلسفة والهيأة والحساب والموسيقى واشتغل بالترجمة كما اشتغل غيره بها فترجم كثيرا من كتب الفلسفة وأوضح الغامض منها وكانت له المكانة العليا عند المأمون والمعتصم وولده أحمد ؟ هل أنا في حاجة الى ذكر بني موسى بن شاكر محمد وأحمد والحسن الذين اشتغلوا في مساحة الكرة الارضية ومعرفة محيطها وقطرها وما كان لهم من المنزلة عند الامراء والخلفاء ؟ أأذكر ابن سينا ومنزلته في قومه ووصوله الى مسند الوزارة عند شمس الدولة ؟ أم أذكر الفارابي وما كان له من المكانة عند سيف الدولة بن حمدان

لاريب أن أبا العلاء المعري يصلح أن يكون رجلا ممن تعنى الجامعة بنشر تراجمهم وقد قال مالم يقل بمثله فولتير وروسو وقد مات مع ذلك على فراشه وقبره اليوم مزار يرحل اليه في بلده

أظن أنه يسهل بعد سرد ماعددناه أن يعرف قراء الجامعة أن الاسلام كان يوسع صدره للغريب كما يوسعه للقريب بميزان واحد وهو ميزان احترام العلماء للعلم . ويسهل على أن التمس العذر للجامعة

بانها عند ما كتبت ما كتبت تمثلت لها بعض حوادث قبل إنها حدثت للدين وما حدثت له . بل كان سبب حدوثها إما سياسة خرقاء . أو جهالة عمياء . أو تأريث بعض السفهاء . لأطيل خوف الاملال .

وانتقل الآن الى الامر الثالث وهو المقابلة بين طبيعة الدينين وهو أهم مما سبق ومما سيلحق

طبيعة الدين المسيحي

تمهيد — ظنت الجامعة أن الدين المسيحي فصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية ولذلك كان في طبيعته التسامح . أما الدين الاسلامي فمن أصوله أن السلطان ملك وخليفة ديني وذلك مما يصعب معه التسامح في رأيها

ليس هذا بكاف في بيان طبيعة كل من الدينين واستعدادهما للتسامح مع العلم أو مع أية عقيدة تخالفها بل لابد من بيان أركان الدين وأهم أصوله التي ترجع اليها جميع الفروع وعنها تصدر لا ثار الحقيقية

عند النظر في أي دين للحكم له أو عليه في قضية من القضايا يجب أن يؤخذ ممحصا مما عرض عليه من بعض عادات أهله أو محدثاتهم التي ربما تكون جاءتهم من دين آخر . فاذا أريد أن

يحتج بقول أو عمل لاتباع ذلك الدين في بيان بعض أصوله فليؤخذ في ذلك بقول أو عمل أقرب الناس الى منشأ الدين ومن تلقوه على سذاجته التي ورد بها من صاحب الدين نفسه

وإنني أوجز القول في إيراد الاصول الاولى التي وردت في الاناجيل المعروفة الآن في أيدي المسيحيين ، وجاءت في كلام أئمتهم الاولين ، ثم ايراد ما جر اليه الاخذ بتلك الاصول بحكم طبيعة الدين .

الاصل الاول للنصرانية الخوارق

أول أصل قام عليه الدين المسيحي وأقوى عماد له هو خوارق العادات . تقرأ الاناجيل فلا تجد للمسيح عليه السلام دليلا على صدقه الا ما كان يصنع من الخوارق وعددها في الاناجيل يطول شرحه . ثم إنه جعل ذلك دليلا على صحة الدين لمن يأتي بعده فجعل لاصحابه ذلك كما تراه في الاصحاح العاشر من انجيل متى وغيره اذا تتبعت جميع ما قال الاولون من اهل هذا الدين تجد خوارق العادات ، من أظهر الآيات لى صحة الاعتقادات . ولا يخفى أن خارق العادة هو الامر الذي يصدر مخالفا لشرائع الكون ونواميسه فاذا ساغ أن يكون ذلك لكل من علا كعبه في الدين لم يبق عند صاحب الدين ناموس يعرف له حكم مخصوص

زاد الانجيل على هذا أن الايمان ولو كان مثل حبة خردل كاف في خرق نواميس الكون كما قال في الاصحاح السابع عشر من متى ١٠ : « فالحق أقول لكم لو كان لكم ايمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا الى هناك فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن لديكم » وفي الحادي عشر من مرقس ٢٣ « لاني الحق أقول لكم أن من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر ولا يشك في قلبه بل يؤمن أن ما يقوله يكون فمهما قال يكون له» ٢٤ « لذلك أقول لكم كل ما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم »

فكل بحث يؤدي الى أن للكون شرائع ثابتة وان للعلل والشرائط أو الاسباب أو الموانع أحكاما في معلولاتها أو ما شرطت فيه أو ما تسبب عنها أو ما استحال وجوده لوجودها كان مضادا لهذا الاصل في أي زمن. وقد كان كل علم من علوم الاكوان لا بد فيه من هذا البحث فكل علم مضاد لهذا الاصل . ثم ان صاحب الاعتقاد بهذا الاصل لا يحتاج الى البحث في الاسباب والمسببات لان اعتقاده في الشيء أن يكون وارادته لان يكون كافيان في حصوله فهو في غنى عن العلم والعلم عدو لما يعتقد فما أصعب احتماله اذا جاء يزاحمه في سلطانه

الاصل الثاني للنصرانية سلطة الرؤساء

و بعد هذا الاصل أصل آخر وهو السلطة الدينية التى منحت

للرؤساء على المرؤوسين في عقائدهم، وما تكنه ضمائرهم . وقد أحكم هذه السلطة ما ورد في ١٦ : ١٩ من انجيل متى : « أعطيك مفاتيح ملكوت السموات فكل ما تربطه على الارض يكون مربوطا في السموات وكل ما تحله على الارض يكون محلولا في السموات » وفي ١٨ : ١٨ منه « الحق أقول لكم كل ما تربطونه على الارض يكون مربوطا في السماء . وكل ما تحلونه على الارض يكون محلولا في السماء »

فاذا قال الرئيس الكهنوتي لشخص إنه ليس بمسيحي صار كذلك واذا قال إنه مسيحي فاز بها فليس المعتقد حرا في اعتقاده يتصرف في معارفه كما يرشده عقله، بل عينا قلبه مشدودتان بشفتي رئيسه. فاذا اهتزت نفسه الى بحث أوقفها قابض على تلك السلطة وهذا الاصل ان نازع فيه بعض النصارى اليوم فقد جرت عليه النصرانية خمسة عشر قرنا طوالا

الاصل الثالث للنصرانية ترك الدنيا

وبعد هذين الاصلين أصل ثالث وهو التجرد من الدنيا والانقطاع الى الآخرة . تجد هذا الاصل في الاناجيل وفي أعمال الرسل وكلما قرأت في الكتب الاولى عثرت به . وتجد الاوامر الصادرة بالانقطاع الى الملكوت والهروب من عالم الملك صريحة

في الاصحح السادس والعاشر والتاسع عشر من انجيل متى . فما جاء في السادس : « لا تقدرون أن تخدموا الله والمال ٢٥ لذلك أقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ولالاجسادكم بما تلبسون أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس (الى أن قال) ٣٣ ولكن اطلبوا أولا ملكوت الله وبره وهذه تزداد لكم ٣٤ فلا تهتموا للغد لان الغد يهتم بما لنفسه، يكفي اليوم شره » وقال في التاسع عشر : ٢٣ الحق أقول لكم إنه يعسر أن يدخل غني الى ملكوت السموات ٢٤ وأقول لكم أيضا ان مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني الى ملكوت الله» وفي العاشر : «٩ لا تقتنوا ذهبا ولا فضة ولا نحاسا في مناطقكم ١٠ ولا مزودا للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا الخ »

وحث على الرهبانية وترك الزواج وفي ذلك قطع النسل البشري قال في (١٩ : ١٠ من متى) ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لاجل ملكوت السموات من استطاع أن يقبل فليقبل».

ثم ان ملكوت السموات قد نيط أمره بالايمان المجرد عن النظر في الاكوان فما ذا يكون حظ صاحب الاعتقاد بهذا الاصل من النظر في اي علم والعلم لادخل له في شؤون الآخرة والدنيا قد حرمت عليه ؟ لا ريب أن همه يكون في الصلاة وصرف القلب بكليته الى العبادة دون سواها وليس الفكر في الخليقة من العبادة عنده فان عبادة

الانجيل ليست شيئا سوى الايمان والصلاة

الاصل الرابع للنصرانية
الايمان بغير المعقول

وبعد هذه الاصول أصل رابع وهو عند عامة المسيحيين أصل الاصول لايختلف فيه كاثوليك ولا أرثوذكس ولا بروتستانت وهو ان الايمان منحة لادخل للعقل فيها وان من الدين ما هو فوق العقل بمعنى ماينافض أحكام العقل وهو مع ذلك مما يجب الايمان به . قال القديس أنسيلم : « يجب أن تعتقد أولا بما يعرض على قلبك بدون نظر ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت » فليس الايمان وهو الوسيلة الفردة الى النجاة في حاجة الى نظر العقل ، والكون وما فيه لا يهم المؤمن أن يجيل فيه نظره . وقول القديس « ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت » نوع من التفضل على النزعة البشرية الى الفهم (١) وعلى الميل الفطري الى تصور ما يتعلق به الاعتقاد، والا فمجرد الايمان كاف في الخلاص . ثم الويل كل الويل لطالب الفهم اذا أدى اجتهاده الى شيء يخالف ما تعلق به إيمانه فكأن معنى الفهم أن يخلق المؤمن لنفسه ما يسلي به نفسه على ايمانه بغير المفهوم

(١) الى الفهم متعلق بالنزعه وهي النزوع والميل

الاصل الخامس للنصرانية

ان الكتب المقدسة حاوية كل ما يحتاج اليه البشر في المعاش والمعاد

ثم ينضم الى الاصول الاربعة خامس وهو ان الكتب المعروفة بالعهد القديم والعهد الجديد تحتوي على كل ما يحتاج البشر الى علمه سواء كان متعلقا بالاعتقادات الدينية، والآداب النفسية، والاعمال البدنية. مما يؤدي الى نيل السعادة في الملكوت الاعلى — وكان من المعارف البشرية التي يتأتى للعقل الانساني أن يتمتع بها. قال تيرتوليان (وهو أفضل من وصف الاعتقاد المسيحي في نهاية القرن الثالث قبل أن تعرض عليه البدع الكثيرة): « ان عقائد المسيحية أسست على الكتب السماوية ودليل صحة هذه الكتب قدمها وكونها أقدم من كتاب أميروس وأقدم من أقدم أثر معروف عند الرومانيين وأقدم من تأسيس الحكومة الرومانية نفسها والزمن ناصر الحقيقة، ثم تحقق النبوات التي وردت فيها » ثم قال: « ان أساس كل علم عندهم هو الكتاب المقدس وتقاليد الكنيسة وان الله لم يقصر تعليمنا بالوحي على الهداية الى الدين فقط بل علمنا بالوحي كل ما أراد أن نعلمه من الكون، فالكتاب المقدس يحتوي من العرفان على المقدار الذي قدر للبشر أن ينالوه » فجميع ما جاء في الكتب السماوية من وصف

السماء والارض وما فيها وتاريخ الامم ـ مما يجب تسليمه مهما ضارب العقل أو خالف شاهد الحس فعلى الناس أن يؤمنوا به أولا ثم يجتهدوا ثانيا في حمل أنفسهم على فهمه أي على تسليمه أيضا كما ترى . وقال بعض فضلائهم : انه يمكن أن يؤخذ فن المعادن بأكمله من الكتاب المقدس

الاصل السادس للنصرانية

﴿ التفريق بين المسيحيين وغيرهم حتى الاقربين ﴾

ينظم تلك الاصول كلها أصل سادس وهو آخرها فيما أرى . ذلك الاصل هو الذي ورد في الاصحاح العاشر من انجيل متى وهو: « ٣٤ لا تظنوا اني جئت لالقي سلاما على الارض ما جئت لالقي سلاما بل سيفا ٣٥ فاني جئت لافرق الانسان ضد أبيه والابنة ضد أمها والكنة ضد حماتها ٣٦ وأعداء الانسان أهل بيته . » وقد صرح في عدة مواضع من الانجيل ان الاخلال بشيء من محبة المسيح أو بالانقياد الى جميع ما أوصى به موجب للهلاك وان كان قد جاء في مواضع كثيرة ان الايمان وحده كاف في الخلاص غير ان روح الشدة التي جاءت في قوله « لا تظنوا اني جئت لالقي سلاما الخ » هي التي بقي أثرها في نفوس الاولين من المعتقدين بدين المسيحي وعفت على آثار ما كان يصح أن تستشعره النفوس من بعض الوصايا الاخر

نتائج هذه الاصول وآثارها

من هنا أعرض المسيحيون الاولون عن شواغل الكون وصدوا عن سبيل النظر فيه اظهارا للغنى بالايمان والعبادة عن كل شيء سواهما، وحجروا على هم النفوس أن تنهض الا الى الدعوة الى ذلك الايمان وتلك العبادة، ووسائل الدعوة هي الايمان والعبادة كذلك فاذا نزعت العقول الى علم شيء من العالم وضعوا أمام نظرها كتب العهد القديم وحصروا العلم بين دفتيها استغناء بالوحي عن كل عمل للعقل سوى فهمه من عباراته وليس يسوغ لكل ذي عقل فهمه بل انما يتلقى فهمه من رؤساء الكنيسة خوفا من الزيغ عن الايمان السليم (البروتستانت رأوا أنه يجوز تفسير الكتاب المقدس لغير الكنيسة)

ثم ان إلقاء السيف ووضع التفريق بين الاقارب والاحبة إنما جاء حافظا لذلك كله فاذا خطر على قلب أحد خاطر سوء يرمي الى معارضة شيء من أمور الايمان المقررة وجب قطع الطريق على ذلك الخاطر ولم يجز فى شأن صاحبه هوادة ولا مرحمة كما أفهمه المسيح بعمله على حسب ماورد فى الانجيل فقد قيل له: « ٤٧ أمك واخوتك واقفون خارجا طالبين أن يكلموك ٤٨ فأجاب وقال للقائل له من هي أمي ومن هم اخوتي ٤٩ ثم مديده نحو تلاميذه وقال ها أمي واخوتي » ونحو ذلك مما يدل على وجوب المقاطعة بين من يعتقد بالدين المسيحي

ومن يحيد عن شيء من معتقده . ولايخفى أن الشيء يكون بزرة ثم نبتا ثم شجرا فانظر الى ماصار أمر هذه البدايات بحكم الطبيعة

وقر في نفوس المسيحيين أن السلامة في ترك الفكر والاخذ بالتسليم وتقرر عند القوم قاعدة « أن الجهالة أم التقوى » (وكثير من أهل الاديان مسيحيين ومسلمين لايزالون يجرون على هذه القاعدة ببركة ماورثوا عن أبناء الزمن الغابر) فحصروا التعليم في الاديار ومنعت الكنيسة أن ينشر التعليم بين العامة الا ما كان دعوة الى الصلاح وتقرير الايمان على وجه ظاهر. وبقي غير القسيسين في جهالة حتى بأمور الدين وحقائقه وأسراره . ظهرت ذات الذنب التى تنسب الى هالي في سنة ١٦٨٢ فاضطربت لظهورها أوربا ولجأوا الى البابا واستجاروا به فأجارهم وطردها من الجو فولت في الفضاء مذعورة من لعنته ولم تعد الا بعد خمس وسبعين سنة ؟ ؟

لم يكن يسمح لاحد أن يبدي رأيا يخالف صريح مافي الكتاب، وعند ماأظهر بلاج رأيه في أن الموت كان يوجد قبل آدم أي إن الحيوانات كان يدركها الموت قبل أن يخطىء آدم بالاكل من الشجرة قام لذلك ضوضاء وارتفعت جلبة وانتهى الجدال والجلاد الى صدور أمر امبراطوري بقتل كل شخص يعتقد ذلك . يقول المؤرخ : وهكذا عد الاعتقاد بأن الموت كان يزور الاحياء قبل آدم جريمة على الملك

أحرقت كتب البطالسة والمصريين بالاسكندرية على عهد جول قيصر ثم إن تيوفيل بطريرك الاسكندرية انتحل أدنى الاسباب لاثارة ثورة في المدينة لاتلاف ما بقي في مكتبة البطالسة بعضه بالاحراق وبعضه بالتبديد . قال أوروسيوس المؤرخ انه رأى أدراج المكتبة خالية من الكتب بعد ان نال تيوفيل الامر الامبراطوري باتلافها بنحو عشرين سنة

ثم جاء بعد تيوفيل ابن أخته سيريل وكان خطيبا مفوها له على الشعب سلطان بفصاحته وكان في الاسكندرية بنت تسمى هيباتي الرياضية تشتغل بالعلوم والفلسفة وكان يجتمع اليها كثير من أهل النظر في العلوم الرياضية وكان لا يخلو مجلسها من البحث في أمور أخر خصوصا في هذه المسائل الثلاث: من أنا؟ والى أين أذهب؟ وماذا يمكنني أن أعلم ؟ فلم يحتمل ذلك القديس سيريل، مع أن البنت لم تكن مسيحية بل كانت على دين آبائها المصريين، فأخذ يثير الشعب عليها حتى قعدوا لها وقبضوا عليها في الطريق سائرة الى دار ندوتها وجردوها من ثيابها وأخذوها الى الكنيسة مكشوفة العورة وقتلوها هناك ثم قطع جسمها وجرد اللحم عن العظم وما بقي منها ألقي في النار . يقول المؤرخ راوي هذه القصة : ولم يسئل سيريل عما صنع بهيباتي ولم تنظر الحكومة الرومانية فيما وقع عليها ولعل ذلك كان أول ما تقررت تلك القاعدة : « الغاية تشفع للوسيلة »

ما من عقيدة ظهرت في المسيحية وأريد تقريرها من فريق ونازع فيها فريق الا وقد سالت لها الدماء، فليراجع التاريخ لتتمثل أرض مصر مصبوغة بدماء المسيحيين من فريقين مختلفين عند ما أريد تقرير عبادة العذراء واتخاذها لله أما . كان ذلك في طبيعة الدين: ان من لم يتبع المسيح فهو هالك والهالك لا يستحق الحياة . ألم تر في الاصحاح الخامس من الاعمال الى قصة الرجل الذي باع جميع ما عنده وعند ما جاء الى بطرس أعطاه الثمن وادخر لنفسه شيئا أخفاه عنه فاطلع بطرس على حقيقة الامر ووبخ الرجل وتصرف فيه بسلب حياته من طريق المعجزة ثم جاءت امرأته وكان لها اطلاع على ما أخفى زوجها ولم تنهه فوبخها بطرس وأخبرها بموت زوجها فماتت هي أيضا . فاذا كان الله يسلب الحياة جزاء على اختلاس الرجل شيئا من مال نفسه لم يقدمه هدية للرسل فكيف تكون الحياة من حقه اذا خالف خلفاء الله في الارض ونابذهم فيما يعتقدون؟

قال البابا أنوسان الثالث عند الكلام في مصادرة الذين يخالفون العقيدة الكاثوليكية : « لا يجوز أن يترك لاولاد الجاحدين سوى الحياة وترك الحياة لهم منّ واحسان » فلم يقصر الجزاء على الجاحدين ولكن عدّاه الى أولادهم وعد ترك الحياة لاولادهم يتمتعون بها ضربا من الاحسان عليهم لانهم لا حق لهم في أن يعيشوا وقد جحد آباؤهم

مقاومة النصرانية للعلم

لا أجد في التاريخ ذكراً للعلم والفلسفة بعد ظهور المسيحية في مظهر القوة لعهد قسطنطين وما بعده الا في أثناء المنازعات الدينية التي كان يفصل فيها تارة بسلطان الملوك وأخرى بجمع المجامع وثالثة بسفك الدماء فتخمد شعلة العلم وينتصر الدين المحض . وانما الذكر كل الذكر لما كان بين المسيحية وما جاورها من الملل الاخرى من الحروب الدينية للحمل على العقيدة بما كان يعتقد المسيحيون وما كان يقع بين ملوك أوربا من التسافك في الدماء باغراء رؤساء الكنيسة وأمر ذلك معروف عند من له إلمام بالتاريخ وليس من موضوعنا الكلام فيه

ولكن أرى شبه نزاع بين العلم والدين ظهر في أوربا بعد ظهور الاسلام واستقرار سلطانه في بلاد الاندلس واحتكاك الاوربيين بالمسلمين في الحروب الصليبية

رجع الآلاف من الغزاة الصليبيين الى بلادهم وحملوا الى الناس أخبارا تناقض ما كان ينشره دعاة الحرب من رؤساء الكنيسة من أن المسلمين جماعة من الوثنيين غلبوا على الارض المقدسة وأجلوا عنها دين التوحيد ونفوا منها كل فضيلة واخلاص وهم وحوش ضارية وحيوانات مفترسة فلما قفل الغزاة الى ديارهم قصوا على قومهم أن

أعداءهم كانوا اهل دين وتوحيد ومروءة وذوي ود ووفاء وفضل مجاملة

ثم كان الخليفة الحكم الثاني جعل من بلاد الاندلس فردوسا كما قال الفيلسوف الاميركاني وكان اليهود والنصارى يتلاقون في تلك البلاد تحت ظلال الامن والحرية . قال بطرس المحترم الشهير: انه رأى كثيرا من العلماء يأتون الى تلك البلاد لتلقي العلوم الفلكية حتى من بلاد انكلترا وأولئك الذين يسعون الى طلب العلوم من أي بلاد جاءوا كانوا يجدون فيها رحبا وسعة وكان قصر الخلفة يشبه أن يكون مصنعا للكتب — نسخ وتذهيب وتجليد الخ ما قال

ثم انتشرت صناعة الورق التي اخترعها العرب ثم اكتشفت المطبعة وسهل على الناس أن ينشروا آراءهم بعد أن تنبهت أفكارهم بما جلب اليهم رسل العلم الذين حملوه اليهم من أهالي اسبانيا ومن حملوه مما جاورها . ثم انساب الى العقول شيء مما سماه الاوربيون فلسفة ابن رشد . عند ذلك اهتمت المسيحية بالامر وأخذت تحارب كل ما يظهر على ألسنة الناس أو يرد على أسماعهم مما يخالف ما في الكتب المقدسة وتقاليد الكنيسة . قال دي رومنيس : ان قوس قزح ليست فوسا حربية بيد الله ينتقم بها من عباده اذا أراد بل هي من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء . فجاب الى روما وحبس حتى مات ثم حوكمت جثته وكتبه فحكم عليها وألقيت في النار . وقيل في علة الحكم : انه أراد الصلح بين كنيستي روما وانكلترا

وأي ذنب أعظم من هذا الصلح ؟ هو أضخم بلا ريب من ذنب القول بأن قوس قزح من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء

مراقبة المطبوعات ومحكمة التفتيش

انشئت المراقبة على المطبوعات وحتم على كل مؤلف وكل طابع أن يعرض مؤلفه أو مايريد طبعه على القسيس أو المجلس الذي عين للمراقبة وصدرت أحكام المجمع المقدس بحرمان من يطبع شيئا لم يعرض على المراقب أو ينشر شيئا لم يأذن المراقب بنشره وأوعز الى هذا المراقب أن يدقق النظر حتى لا ينشر ما فيه شيء يومىء الى مخالفة العقيدة الكاثوليكية ووضعت غرامات ثقيلة على أرباب المطابع يعاقبون بها فوق الحرمان من الكنيسة (كأن الحكومة العثمانية على ما تنشر بعض الجرائد أخذت نسخة من قرار المجمع المقدس لتجري عليه مراقبة المطبوعات ولكن للسياسة لا للدين)

أنشئت محكمة التفتيش لمقاومة العلم والفلسفة عند ما خيف ظهورهما بسعي تلامذة ابن رشد وتلامذة تلامذته خصوصا في جنوب فرنسا وايطاليا. أنشئت هذه المحكمة الغريبة بطلب الراهب توركاندا قامت المحكمة بأعمالها حق القيام ففي مدة ثمانية عشرة سنة — من سنة ١٤٨١ الى سنة ١٤٩٩ — حكمت على عشرة آلاف

ومئتين وعشرين شخصا بأن يحرقوا وهم أحياء فأحرقوا وعلى ستة آلاف وثمانمائة وستين بالشنق بعد التشهير فشهروا وشنقوا وعلى سبعة وتسعين ألفا وثلاثة وعشرين شخصا بعقوبات مختلفة فنفذت ثم أحرقت كل توراة بالعبرية

ما ذا كانت وسائل التحقيق عند هذه المحكمة « المقدسة» ؟ وسيلة واحدة هي أن يحبس المتهم وتجري عليه أنواع العذاب المختلفة بآلات التعذيب المتنوعة الى أن يعترف بما نسب اليه وعند ذلك يصدر الحكم ويعقبه التنفيذ . قرر مجمع لاتران سنة ١٥٠٢ أن يلعن كل من ينظر في فلسفة ابن رشد . وطفق الدومينكان يتخذون من ابن رشد ولعنه ولعن من ينظر في كلامه شيئا من الصناعة والعبادة لكن ذلك لم يمنع الامراء وطلاب العلوم من كل طبقة من تلمس الوسائل للوصول الى شيء من كتبه وتحلية العقول ببعض أفكاره

اشتدت محكمة التفتيش في طلب أولئك المجرمين طلاب العلم والسعاة الى كسبه ونيط بها كشف البدعة والحكم فيها مهما اشتد خفاؤها — في المدن . في البيوت . في السراديب . في الانفاق . في المخازن . في المطابخ . في المغارات . في الغابات . وفي الحقول. فوفت بما كلفت به مع البهجة والسرور اللائقين بأصحاب الغيرة على الدين عملا بالقول الجليل « ما جئت لالقي سلاما بل سيفا »

كان يؤخذ الرهبان في صوامعهم ، والقسوس في كنائسهم ،

والاشراف في قصورهم ، والتجار بين بضائعهم ، والصناع في مصانعهم والعامة في بيوتهم ومزارعهم ، وحيثما وجدوا ، وأينما ثقفوا، ويوقفون أمام المحكمة وتصدر الاحكام عليهم يوم اتهامهم

قرر مجمع لاتران أن يكون من وسائل الاطلاع على أفكار الناس الاعتراف الواجب أداؤه على المذهب الكاثوليكي أمام القسيس في الكنيسة (أي الاعتراف بالذنوب طلبا لغفرانها)

تذهب البنت أو الزوجة او الاخت لاجل الاعتراف بين يدي القسيس يوم الاحد فيكون مما تسئل عنه عقيدة أبيها أو أو زوجها أو أخيها وما يبدر من لسانه في بيته وما يظهر في أعماله بين أهله . فاذا وجد القسيس متلقي الاعتراف شيئا من الشبهة في طلب العلم غير المقدس على من سأل عنه رفع أمره الى المحكمة فينقض شهاب التهمة عليه فاذا سأل عن الشاهد الذي عول عليه في اتهامه لا يجاب وإنما يقام التعذيب مقام شخص الشاهد وهو من أهله حتى يعترف

أوقعت هذه المحكمة المقدسة من الرعب في قلوب اهل أوربا ما خيل لكل من يلمع في ذهنه شيء من نور الفكر اذا نظر حوله أو التفت وراءه أن رسول الشؤم يتبعه وأن السلاسل والاغلال أسبق الى عنقه ويديه ، من ورود الفكرة العلمية اليه ، وقال باغلياديس ما كان يقوله جميع الناس لذلك العهد : « يقرب من المحال أن يكون الشخص مسيحيا ويموت على فراشه »

حكمت هذه المحكمة من يوم نشأتها ١٤٨١ الى سنة ١٨٠٨ على ثلاثمائة وأربعين ألف نسمة منهم نحو مائتي ألف أحرقوا بالنار أحياء

اضطهاد المسيحية للمسلمين واليهود والعلماء عامة

لما كان ابن رشد هو الينبوع الذى تفجر منه ماء العلم والحرية في أوربا على زعم القسوس وكان ابن رشد استاذا يتعلم عنده كثير من اليهود وقد اتهموا بنشر أفكاره وآرائه ثم هو مع ذلك مسلم صب غضب الكنيسة على اليهود والمسلمين معا فصدر الامر في ٣٠ مارس (آذار) ١٤٩٢ بأن كل يهودي لم يقبل المعمودية في أي سن كان وعلى أي حال كان يجب أن يترك بلاد اسبانيا قبل شهر يوليو (تموز) ومن رجع منهم الى هذه البلاد عوقب بالقتل وأبيح لهم أن يبيعوا مايملكون من عقار ومنقول بشرط أن لا يأخذوا في الثمن ذهبا ولا فضة وانما يأخذون الاثمان عروضا وحوالات. ومن ذا الذي يشتري اليوم بثمن ما يأخذه بعد ثلاثة اشهر بلا ثمن؟ (يعني ان أموال اليهود تكون مباحة بعد جلائهم الذي تم في يوليو) وصدر امر (تور كاندو) أن لا يساعدهم أحد من سكان اسبانيا في أمر من أمورهم. وهكذا خرج اليهود تاركين كل مايملكون بارواحهم على انه لانجاة لكثير منها فقد اغتالها الجوع ومشقة السفر مع العدم والفقر

وفي فبراير (شباط) سنة ١٥٠٢ نشر الامر بطرد أعداء الله

المغاربة (المسلمين) من اشبيلية وما حولها — من لم يقبل المعمودية منهم يترك بلاد اسبانيا قبل شهر ابريل (نيسان) وأبيح لهم أن يبيعوا مايملكون على الشرط الذي وضع لليهود ولكن وضع المسلمين شرط آخر وهو أن لايذهبوا في طريق يؤدي الى بلاد اسلامية ومن خالف فجزاؤه القتل . فهؤلاء المساكين نفوا جميعا الى القتل إن لم يكن قتل الجزاء عند الرجوع فالموت ملاقيهم بالتعب مع العري والجوع

ألا يعجب القاريء اذا رأى أن (برونو يحرق بالنار حيا بعد) حبس طويل سنة ١٦٠٠ لانه قال بقول الصوفية في وحدة الوجود وقال ان هذا العالم يحتوي على عوالم كثيرة ؟ الحمد لله رب العلمين

ظهر القول بكروية الارض — ذلك الامر الذي عرفه المسلمون وصار رأيا لهم في أول خلافة بني العباس ولم تتحرك له شعرة في بدن — فاحدث اضطرابا شديدا في عالم النصرانية ولا يسع هذا المقال ماوقع من الحوادث في شأنه

هل يصدق القاريء أن ماقصده كريستوف كولمب من السفر في المحيط الاطلانطيقى لعله يكتشف أرضا جديدة كان من الامور التي اهتمت لها الكنيسة وحكم مجمع سلامانك بأنه مخالف لاصول الدين ثم أعيد النظر فيه وعرض على أقوال الآباء من كريزيستوم واوغستين وجيروم وغريغوار وبازيل وانبرواز وعلى رسائل الرسل والاناجيل والنبوات والزبور والاسفار الخمسة ولم ينتج هذا العرض

شيئا ولكن ساعده على ماقصد بعض الملوك رغم الكنيسة كما هو معلوم . قال كريستوف كولمب ان الذي أوحى اليه هذاالقصدالنبيل هي كتب ابن رشد . من هنا تفهم لم قامت له الكنيسة وقعدت ؟

ماأشد تمسك الكنيسة بهذا الاصل الجليل « السلطة للقسوس والطاعة على العامة » كل رأي لم يصدر عن ذلك المصدرالديني الذي يربط و يحل في الارض والسماء فهوباطل تجب مقاومته بكل مايستطاع لهذا حكم على غاليلي الذي ذهب الى أن حركة الكواكب هي على النظام المعروف عند الفلكيين اليوم

﴿ مقاومة الكنيسه للحقن تحت الجلد ﴾

هل تدري ماذا حصل من المقاومة لادخال الحقن تحت الجلد بمادة المرض ؟ اكتشفت هذه الطريقة الطبية عندالمسلمين في الاستانة ثم نقلتها الى أوروبا امرأة تسمى مارى مونتاجو سنة ١٧٢١ فقامت قيامة القسوس وعارضوا في استعمالها واحتيج في تعضيدها الى التماس المساعدة من ملك انكلترا وعادت هذه الشدة في المعارضة عند مااكتشفت طريقة تطعيم الجدري

مقاومة تسهيل الولادة

أي مقاومة لم يلاقها اكتشاف تخدير المرأة عند الولادة حتى لاتحس بألم الطلق . اكتشاف أميركاني رأت حضرات القسوس فيه انه يخلص المرأة من تلك اللعنة أو تلك العقوبة التي سجلت عليها

في سفر التكوين (إذ جاء في الاصحاح الثالث منه : وقال للمراة تكثيرا اكثر اتعاب حملك بالوجع تلدين أولادا »)

مقاومة السلطة المدنية وحرية الاعتقاد

نشر البابا منشورا في سنة ١٨٦٤ جاء فيه لعن كل من يقول بجواز خضوع الكنيسه لسلطة مدنية أو جواز أن يفسر أحد شيئا من الكتب المقدسة على خلاف ماترى الكنيسة أو يعتقد بان الشخص حر فيما يعتقد ويدين به ربه . وفي منشور له سنة ١٨٦٨ ان المؤمنين يجب عليهم أن يفدوا نفوذ الكنيسة بأرواحهم وأموالهم وعليهم أن ينزلوا لها عن آرائهم وأفكارهم ودعا الروم الارثوذكس والبروتستانت الى الخضوع للكنيسة الرومانية على هذا الوجه

في سنة ١٨٧١ كان النزاع بين حكومة بروسيا والبابا في عزل أستاذ في احدى الكليات رأى رأيا لا يروق للحزب الكاثوليكى فحرمه البابا وطلب من الحكومة عزله وكانت احدى المعضلات السياسية غير ان عزيمة بسمارك نصرت مدنية القرن التاسع عشر على سلطان الكنيسة وأبت الاستاذ وجعلت التعليم تحت السلطة المدنية

مقاومة الجمعيات العلمية والكتب :

لا أذكر الجمعيات العلمية (الاكادميات) التى ألغيت والاجتماعات التي عطلت لا لشيء كان فيها سوى هداية البشر الى منافعهم وتنوير بصائرهم بكشف ما احتجب عنهم من سر الخليقة بالبحث النظري

ومن الطريق العقلي من غير استشارة المسيطر الالهي وهو الكنيسة ولكن أذكر شيئاً واحدا وهو ان الكردينال اكسيمنيس أحرق في غرناطة ثمانية آلاف كتاب بخط القلم فيها كثير من ترجمة الكتب المعول عليها عند علماء أوربا لذلك العهد

﴿ البروتستانت أو الاصلاح ﴾

ربما يقول قائل: ان هذا الذي ذكرت هو عمل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ولكن قد قام في المسيحية مصلحون يرون ارجاع الدين الى أصل الكتب المقدسة و يبيحون للعامة أن ينظروا فيها و يفهموها وقد رفعوا تلك السيطرة عن الضمائر والعقول ومن عهد ظهور الاصلاح والرجوع الى أصول الدين الاولى بزغت شمس العلم بالمغرب وبسط للعلم بساط التسامح وذلك لا يمكن أن يكون الا جريا مع طبيعة الدين

لا أذكر في الجواب عن ذلك الا ماذكر البروتستانت أنفسهم في تاريخ الاصلاح : استمرت عقوبة الموت قانونا يحكم به على كل من يخالف معتقد الطائفة وقد أمر كلفان (١) باحراق سيرفيت في جنيف لانه كان يعتقد أن الدين المسيحي كان قد دخل عليه شيء من الابتداع قبل مجمع نيقه . وكان يقول : ان روح القدس ينعش

« ١ » كلفان هو الزعيم الثاني للبروتستانت ولوتر الاول

الطبيعة بأسرها . فكان جزاؤه على هذا أن شوي على النار حتى مات وهكذا أحرق فايتي في تلوز سنة ١٦٢٩

كان لوتير أشد الناس انكارا على من ينظر في فلسفة ارسطو وكان ذلك المصلح يلقب هذا الفيلسوف بالخنزير الدنس الكذاب ونحو ذلك من الالقاب التى لا بأس بها اذا صدرت من أهل الغيرة على الدين في طريق الدفاع عنه ! ! وكان كلفان أقل شتما للفيلسوف من لوتير لكنه لم يكن أحسن ظنا به ولا أوسع صدرا لمن يطلع على شيء من كتبه . وكان علماء المسلمين يلقبون هذا الفيلسوف « المعلم الاول » فتأمل الفرق بين الفريقين ! !

قالوا : البروتستانت قاموا يطالبون بالحرية في فهم الكتب المقدسة وبابطال السلطة على غفران الذنوب والتجارة ببيع الثواب والسعادة الاخروية وابطال عبادة الصور . ولكنهم لم يغيروا شيئا من الاعتقاد بأن الكتب المقدسة هي نبراس الهداية في طريق العلم البشري كما انها منبع نور الايمان بالدين الالهي وانه لا يباح للعقل أن ينساق في نظره الى ما يخالف شيئا مما حوته وأنه لا حاجة الى شيء من العلم وراء ما ورد فيها . والجملة انهم لم يبطلوا أصلا من الاصول الستة التي تقدمت الا أنهم قالوا بمنع غلو الرؤساء في سلطتهم المبنية على الاصل الثاني فى سابق قولنا .

قالوا : ولهذا لم يكن مذهب الاصلاح أخف وطأة على العلم

ولا أفضل معاملة له من الكاثوليك لان كلا المذهبين يرجع الى طبيعة واحدة (وهي القائمة على الاصول السنة) ولم يكن لاهل النظر العقلي جزاء في كلا الملتين الا القتل وسفك الدم

لو كنت ممن يحب الجدال في الدين لعددت فيما ذكرته من عناصر الدين المسيحي ما تضمنه قول بعض الناقدين عند الكلام على الحروب المسيحية واضطهادات الكنيسة . « ما أهون الدم على من يمثل في عبادته أكل الدم وعلى من يعتقد أن خلاص العالم الانساني من الخطيئة انما كان بسفك الدم البريء على يد المعتدي الاثيم » لكني في بحثي هذا لا أريد أن أستعمل قوة الخيال ، ولا أن أذكر ما يعد من قبيل الجدال ، وانما آتي بما هو حكاية حال ، ليس للناظر فيها مقال ،

﴿ الفصل بين السلطتين في المسيحية ﴾

بقي علينا الكلام فيما جعلته الجامعة أساسا للفصل بين السلطتين الدينية والملكية وبه كانت طبيعة الدين المسيحي أدعى الى التسامح مع العلم في نظرها . لو سلمنا أن في تلك العبارة معنى الفصل - كما قالت الجامعة . وقال كثير غيرها ممن أرادوا مقاومة السلطة الدينية - فماذا يفيد الفصل اذا كان دين الملك نفسه يقضي عليه بمعاداة العلم ؟ أفلا يغلب اعتقاد الملك وما يملك نفسه مما فيه نجاته الروحية على مطالب

الملك ؟ وكم من ملك جعل مصالح مملكته قربانا لسلطان عقيدته . هب ان مصالح الملك تكون دائما أغلب على النفس من حكم العقيدة وقاهر الايمان والوجدان وقد أقام الدين سلطتين منفصلتين احداهما تحل وتربط فى الارض وفى السماء فيما هو من خاصة الدين والاخرى تحل وتربط فى الارض فيما هو من خصائص الدنيا . أفلا يكون هذا الفصل قاضيا بتنازع السلطتين وطلب كل واحدة منهما التغلب على الاخرى فيمن تحت رعايتهما معا ؟ وهل يسهل على السلطة الدينية أن تدع رعاياها تتصرف في أبدانهم وأموالهم بل وفي عقولهم أبدي الملوك بما تقتضيه مصالح الملك الفاني اذا كان ذلك التصرف مخالفا لما جاء في كنز المعارف وهو الكتب السماوية وتأويل الرؤساء الروحيين وسننهم فاذا همت هذه السلطة بالمعارضة أفتصبر الاخرى ؟ هذا هو الذي وقع في العالم المسيحي منذ ظهرت سلطة الدين

كيف يتسنى للسلطة المدنية أن تتغلب على السلطة الدينية وتقف بها عند حدها والسلطة الدينية انما تستمد حكمها من الله ثم تمد نفوذها بتلك القوة الى أعماق قلوب الناس وتديرها كيف تشاء . والملك لاقوة له الا بأولئك الناس المغلوبين للسلطة الدينية ؟ لا يتأتى للملك أن يغالب تلك القوة الا بعد أن يتناول من الوسائل مالا يعد لاضعاف سلطتها . نعم هذا الفصل يسهل التسامح لو كانت الابدان التي يحكمها الملك يمكنها أن تأتي أعمالها على حدة مستقلة عن الارواح

التي تحيا بها والارواح كذلك تأتي أعمالها بدون الابدان التي تحمل قواها

ثم هل هـذا هو معنى قول الانجيل ؟ القصـة على ماجاء في الانجيل أن بعض المرائين أرادأن يتسقط المسيح ليأخذ عليه ماينم به فسأله : أيجوز أن نعطي جزية لقيصر ؟ فأجاب لم تجربونني ؟ ائتوني بدينار لانظر اليـه . فأتوه بدينار فقال : لمن هذه الصورة والـكتابة ؟ قالوا لقيصر .فقال : أعطوا مالقيصر لقيصر وما لله لله فمعناه الظاهر من سـياق القصة أن صاحب السكة التي تتعاملون بها اذا ضرب عليكم أن تدفعوامنها شيئا فادفعوه له أما قلوبكم وعقولكم وجميع ما هو من الله وعليه طابع صنعته فلا تعطوا منه لقيصر شيئا والعلم ليس مما عليه طابع قيصر بل عليه طابع الله فلا يمكن أن يكون العلم تحت سلطة غير السلطة الروحانية . فأي تسامح مع العلم في هذا ؟

﴿ اعتقاد المسلمين في المسيح والمسيحية ﴾

هذا الذي عرضناه من طبيعة الدين المسيحي واوردناه من مشاربه فيما بعد نشأته وما وقع من حوادث اهله مع طلاب العـلم ورواد المعارف في كل زمن الى مايقرب من أيامنا هذه كل ذلك مأخوذ من تاريخهم الذي كتبوه عن أنفسهم ومن نصوص كتبهم الدينية التى يتوكؤن عليها فيما ذكرنا من سيرتهم واعمالهم

أما رأيي ورأي اهل العقيدة الصحيحة من المسلمين فى المسيح

عليه السلام ودينه فهو على غير ماراه القارىء . انا نعتقد ان المسيح روح الله وكلمته ورسوله الى بنى اسرائيل بعث مصدقا لما بين يديه من التوراة وجاءهم من الدين بما فيه هدى لهم ورشاد في شؤون معاشهم ومعادهم ولم يطالبهم بتعطيل قوة من قواهم التي منحهم الله تعالى إياها بل طالبهم بشكر الله تعالى عليها ولا يشكر حق الشكر إلا باستعمالها جميعها فيما أعدها الله له . والعقل من أجل القوى بل هو قوة القوى الانسانية وعمادها والكون جميعه هو صحيفته التي ينظر فيها وكتابه الذي يتلوه وكل ما يقرأ فيه فهو هداية الى الله وسبيل للوصول اليه ، وكل ماصح عندنا عن السيد المسيح لايخالف شيء منه هذا الذي نعتقد . فان صح عنه شيء يكون في ظاهره مخالفة لهذه الاصول امكننا تأويله حتى يرجع معناه اليها أو وكلنا الامر فيه الى الله وقلنا « لا علم لنا الا ما علمتنا »

الدين دين الله وهو دين واحد في الاولين والآخرين لاتختلف الا صوره ومظاهره . وأما روحه وحقيقة ما طولب به العالمون أجمعون على ألسن الانبياء والمرسلين فهو لا يتغير ـ ايمان بالله وحده واخلاص له في العبادة ومعاونة الناس بعضهم لبعض في الخير وكف أذاهم بعضهم عن بعض ماقدروا . وهذا لا ينافي الارتقاء في الدين بارتقاء عقول البشر واستعدادهم لكمال الهداية . ونعتقد ان دين الاسلام جاء ليجمع البشر كلهم على هذه الاصول ومن أهم وظائفه

ازالة الخلاف الواقع بين أهل الكتاب ودعوتهم الى الاتفاق والاخاء والمودة والائتلاف وهذا ما عمل عليه المسلمون قرنا بعد قرن بحسب قوة تمسكهم بالاسلام

فاذا سأل سائل : اذا كان ذلك الذي قدمت فيما سبق هو اعتراف فضلاء الاوربيين أنفسهم في منافاة طبيعة الدين للعلم واشتداده في معاداته فما هذا الانقلاب الذي حصل فى أوربا وما هذا التسامح الذى يتمتع به العلم اليوم في اقطارها ؟ فجوابه في الكلام على الامر الرابع مما ذكرت الجامعة وهو يكون بعد عرض طبيعة الدين الاسلامي وما يليق ان يكون له مع العلم وما انجر اليه الحال بمقتضى تلك الطبيعة وما عرض عليهما مما سترها وحال بينها وبين أثرها في أخريات الايام وسنوجز القول فيه كما أوجزناه فيما مضى

﴿القسم الثانى في الاسلام﴾

(طبيعة الاسلام مع العلم بمقتضى اصوله)

تمهيد للاصل الاول

للاسلام في الحقيقة دعوتان ـ دعوة الى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده ودعوة الى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم . فاما الدعوة الاولى فلم يعول فيها الا على تنبيه العقل البشري وتوجيهه

الى النظر فى الكون واستعمال القياس الصحيح والرجوع الى ماحواه الكون من النظام والترتيب وتعاقد الاسباب والمسببات ليصل بذلك الى أن للكون صانعا واجب الوجود عالما حكيما قادرا ، وان ذلك الصانع واحد لوحدة النظام فى الاكوان . واطلق للعقل البشري ان يجري في سبيله الذي سنته له الفطرة بدون تقييد فنبهه الى ان خلق السموات الارض واختلاف الليل والنهار وتحريك الرياح على وجه يتيسر للبشر أن يستعملها في تسخير الفلك لمنافعه، وارسال تلك الرياح لتثير السحاب فينزل من السحاب ماء فتحيا به الارض بعد موتها وتنبت ما شاء الله من النبات والشجر مما فيه رزق الحي وحفاظ حياته ـ كل ذلك من آيات الله عليه أن يتدبر فيها ليصل الى معرفته

ثم قد يزيده تنبيها بذكر أصل للكون يمكن الوصول الى شيء منه بالبحث في عوالمه فيذكر ما كان عليه الامر في أول خلق السموات والارض كما جاء في آية « أولم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون » ونحوها من الآيات . وهو اطلاق لعنان العقل ليجري شوطه الذى قدر له في طريق الوصول الى ما كانت عليه الاكوان وقد يزيد التنبيه تأثيرا في ايقاظ العقل مايؤيد ذلك من السنة كما جاء في خبر من سأل النبي صلى الله عليه وسلم وآله : أين كان ربنا قبل السموات والارض فاجابه عليه السلام . « كان في عماء تحت

هواء » (١) والعماء عندهم السحاب . فترى القرآن في مثل هذه المسألة الكبرى لا يقيد العقل بكتاب ، ولا يقف به عند باب ، ولا يطالبه فيه بحساب ، فليقرأ القارىء القرآن يغنني عن سرد الآيات الداعية الى النظر في آيات الكون ـ « أولم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء » . « وآية لهم الارض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون » ـ « ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم والوانكم » وأمثال ذلك فلو أردت سرد جميعها لاتيت بأكثر من ثلث القرآن بل من نصفه في مقالي هذا .

يذكر القرآن اجمالا من آثار الله فى الاكوان تحريكا للعبرة ، وتذكيرا بالنعمة ، وحفزا للفكرة ، لا تقريرا لقواعد الطبيعة ، ولا إلزاما باعتقاد خاص في الخليقة ، وهو في الاستدلال على التوحيد لم يفارق هذه السبيل ، انظر كيف يقرع بالدليل ، « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، اذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون »

(١) رواه ابن جرير والطبراني وابو الشيخ في العظمة عن ابي رزين السائل (رض) والحديث من المتشابهات ولكنه يوافق ما يقوله علماء الكون في اصل مادة العالم

AUC - LIBRARY

فالاسلام في هذه الدعوة والمطالبة بالايمان بالله ووحدانيته لا يعتمد شيئا سوى الدليل العقلي، والفكر الانساني الذي يجري على نظامه الفطري (وهو ما نسميه بالنظام الطبيعي) فلا يدهشك خارق للعادة، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة، ولا يحرس سلطانه بقارعة تعاويه ولا يقطع حركة فكرك بصيحة الهية، وقد اتفق المسلمون الا قليلا ممن لا يعتد برأيه فيهم على ان الاعتقاد بالله مقدم على الاعتقاد بالنبوات وانه لا يمكن الايمان بالرسل الا بعد الايمان بالله. فلا يصح ان يؤخذ الايمان بالله من كلام الرسل ولا من الكتب المنزلة (١) لانه لا يعقل ان نؤمن بكتاب انزله الله الا اذا صدقنا قبل ذلك بوجود الله وبانه يجوز أن ينزل كتابا أو يرسل رسولا

وقالوا كذلك ان اول واجب يلزم المكلف ان يأتي به هو النظر والفكر لتحصيل الاعتقاد بالله ليتوصل منه الى تحصيل الايمان بالرسل وما ينزل عليهم من الكتب والحكمة

واما الدعوة الثانية وهي التي يحتج فيها للاسلام بخارق العادة

(١) المنار — اي لا يؤخذ منها بالتسليم ابتداء ويجعل حجة على الخصم بناء على انها من الله ولا ينافي هذا ان يؤخذ منها اعتبار ما يقيمون من البراهين على ذلك لا بمجرد التسليم لقولهم انهم رسل الله بل بعد الايمان بالله وبما يجب له من الصفات وقبل الايمان بنبوتهم

وما أدراك ما هو الخارق للعادة الذي يعتمد عليه الاسلام ، في دعوته الى التصديق برسالة النبي عليه السلام ؟ هذا الخارق للعادة هو الذي تواتر خبره ، ولم ينقطع أثره ، هذا هو الدليل وحده وما عداه مما ورد في الاخبار سواء صح سندها أو اشتهر أو ضعف أو وهى فليس مما يوجب القطع عند المسلمين . فاذا أورد في مقام الاستدلال فهو على سبيل تقوية العقد لمن حصل اصله ، وفضل من التأكيد لمن سلمه من أهله ، ذلك الخارق المتواتر المعول عليه في الاستدلال لتحصيل اليقين هو القرآن وحده . والدليل على انه معجزة خارقة للعادة تدل على ان موحيه هو الله وحده وليس من اختراع البشر هو انه جاء على لسان أمي لم يتعلم الكتاب ولم يمارس العلوم. وقد نزل على وتيرة واحدة هاديا للضال مقوما للمعوج كافلا بنظام عام لحياة من يهتدي به من الامم منقذالهم من خسران كانوا فيه ، وهلاك كانوا أشرفوا عليه، وهو مع ذلك من بلاغة الاسلوب على مالم يرتق اليه كلام سواه، حتى لقد دعي الفصحاء والبلغاء ان يعارضوه بشيء من مثله فعجزوا ولجأوا الى المجالدة بالسيوف وسفك الدماء واضطهاد المؤمنين به الى أن ألجأوهم الى الدفاع عن حقهم وكان من أمرهم ما كان من انتصار الحق على الباطل وظهور شمس الاسلام تمد عالمها بأضوائها ، وتنشر انوارها في اجوائها

وهذا الخارق قد دعي الناس الى النظر فيه بعقولهم وطولبو

بأن يأتوا في نظرهم على آخر ما تنتهي اليه قوتهم، فان وجدوا طريقا لا بطال اعجازه أو كونه لا يصلح دليلا على المدعى فعليهم ان يأتوا به. قال تعالى: «ان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله» وقال: «أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا» وقال غير ذلك مما هو مطالبة بمقاومة الحجة ولم يطالبهم بمجرد التسليم على رغم من العقل

معجزة القرآن جامع من القول والعلم، وكل منهما مما يتناوله العقل بالفهم، فهي معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضي فيها، وأطلقت له حق النظر في احنائها، ونشر ما انطوى في أثنائها وله منها حظه الذى لا ينتقص. فهي معجزة أعجزت كل طوق ان يأتي بمثلها، ولكنها دعت كل قدرة ان تتناول ما تشاء منها، أما معجزة موت حي بلا سبب معروف للموت أو حياة ميت أو إخراج شيطان من جسم أو شفاء علة من بدن فهي مما ينقطع عنده العقل ويجمد لديه الفهم، وانما يأتي بها الله على يد رسله لاسكات أقوام غلبهم الوهم، ولم تضيء عقولهم بنور العلم، وهكذا يقيم الله بقدرته من الآيات الملائم على حسب الاستعدادات (١)

ثم ان الاسلام لم يتخذ من خوارق العادات دليلا على ان

(١) راجع الصفحة ٣٧١ من مجلد المنار الرابع وانظر الكلام في الآيات الكونية والآيات النفسية العلمية

الحق لغير لانبياء عليهم الصلاة والسلام ولم ترد فيه كلمة واحدة تشير الى ان الداعين اليه يمكنهم أن يغيروا شيئا من سنة الله في الخليقة، ولا حاجة الى بيان ذلك فهو اشهر من ان يحتاج الى تعريف

﴿ الاصل الاول للاسلام ﴾

(النظر العقلي لتحصيل الايمان) (٢)

فأول أساس وضع عليه الاسلام هو النظر العقلي . والنظر عنده هو وسيلة الايمان الصحيح فقد اقامك منه على سبيل الحجا وقاضاك الى العقل، ومن قاضاك الى حاكم فقد أذعن الى سلطته فكيف يمكنه بعد ذلك ان يجور أو يثور عليه

بلغ هذا الاصل بالمسلمين أن قال قائلون من أهل السنة: ان الذي يستقصي جهده في الوصول الى الحق ثم لم يصل اليه ومات طالبا غير واقف عند الظن فهو ناج . فأى سعة لاينظر اليها الحرج أكمل من هذه السعة

﴿ الاصل الثاني للاسلام ﴾

(تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض)

أسرع اليك بذكر اصل يتبع هذا الاصل المتقدم قبل أن أنتقل

---

(٢) هذا الاصل وما بعده ضد الاصل الرابع من اصول النصرانية « راجع ص ٢٦ »

الى غيره : اتفق أهل الملة الاسلامية الا قليلا ممن لا ينظر اليه على انه اذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل وبقي في النقل طريقان طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الامر الى الله في علمه ، والطريق الثانية تاويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتي يتفق معناه مع ما أثبته العقل وبهذا الاصل الذى قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مهدت بين يدي العقل كل سبيل، وأزيلت من سبيله جميع العقبات ، واتسع له المجال الى غير حد ، فماذا عساه يبلغ نظر الفليسوف حتي يذهب الى ماهو أبعد من هذا؟ وأي فضاء يسع اهل النظر وطلاب العلوم ان لم يسعهم هذا الفضاء ان لم يكن في هذا متسع لهم فلا وسعتهم أرض بجبالها ووهادها ولا سماء باجرامها وابعادها ،

﴿ أصل ثالث ﴾

(من اصول الاحكام في الاسلام البعد عن التكفير)

هلا ذهبت من هذين الاصلين الى ما اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد احكام دينهم وهو : اذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مئة وجه ويحتمل الايمان من وجه واحد حمل على الايمان ولا يجوز حمله على الكفر . فهل رأيت تسامحا مع

أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا ؟ وهل يليق بالحكيم أن يكون من الحمق بحيث يقول قولا لايحتمل الايمان من وجه واحد من مئة وجه ؟ اذا بلغ به الحمق هذا المبلغ كان الاجدر به ان يذوق حكم محكمة التفتيش البابوية ويؤخذ بيديه ورجليه فليقى في النار.

﴿أصل رابع فى الاسلام﴾

(الاعتبار بسنن الله في الخلق) (١)

يتبع ذلك الاصل الاول في الاعتقاد — وهو ان لا يعول بعد الانبياء في الدعوة الى الحق على غير الدليل وأن لا ينظر الى العجائب والغرائب وخوارق العادات — أصل آخر وضع لتقويم ملكات الانفس القائمة على طريق الاسلام واصلاح اعمالها في معاشها ومعادها . ذلك هو أصل العبرة بسنة الله فيمن مضى ومن حضر من البشر وفي آثار سيرهم فيهم . فما جاء في الكتاب العزيز مقررا لهذا الاصل « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين — سنة من قد ارسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا — فهل

(١) هذا الاصل ضد الاصل الاول للنصرانية « راجع ٢٢ »

ينظرون إلا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا — اولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » الخ

في هذا يصرح الكتاب ان لله في الامم والاكوان سننا لاتتبدل، والسنن الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشؤون وعلى حسبها تكون الآثار وهي التي تسمى شرائع أونواميس ويعبر عنها قوم بالقوانين . مالنا ولاختلاف العبارات . الذي ينادي به الكتاب ان نظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل، وعلى من يطلب السعادة في هذا الاجتماع ان ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد اليها اعماله ويبني عليها سيرته وما يأخذ به نفسه . فان غفل عن ذلك غافل فلا ينتظرن الا الشقاء وان ارتفع الى الصالحين نسبه ، أو اتصل بالمقربين سببه . فمهما بحث الناظر وفكر ، وكشف وقرر ، وأتى لنا باحكام تلك السنن ، فهو يجري مع طبيعة الدين ، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه ، ولا تنفر منه، فلم لا يعظم تسامحها معه ،

جاء الاسلام لمحو الوثنية عربية كانت او يونانية أو رومانية أو غيرها في أي لباس وجدت ، وفي أي صورة ظهرت ، وتحت أي اسم عرفت ، ولكن كتابه عربي والعربية لغة أولئك الوثنيين أعدائه الاقربين ، وفهم معناه موقوف على معرفة أوضاع اللسان

ولا تعرف اوضاعه حتى تعرف مواضع استعمال كلمه وأساليبه ،وان يكون ذلك الا بحفظ ما نطق به العرب من منظوم ومنثور،وفيه من آدابهم وعاداتهم واعتقاداتهم ما يعيد عند الناظر في كلامهم صورة كاملة من جاهليتهم، وما فيها من الوثنية وأطوارها . هكذا صنع لمسلمون الاولون — ركبوا الاسفار، وانفقوا الاعمار ، و بذلوا الدرهم و لدينار ، في جمع كلام العرب وحفظه وتدوينه وتفسيره توصلا بذلك الى فهم كتابهم المنزل فكانوا يعدون ذلك ضربا من ضروب العبادة ، يرجون من الله فيه حسن المثوبة ، فكان من طبيعة الدين أن لايحتقر العلم للدين الذي ولد هو فيه . بل قد يكون من الدين علم ماليس منه (١) متى حسنت النية في تناوله . وهذا باب من التسامح لا يقدر سعته الا أهل العلم به أما المسيحيون الاولون فقد هجروا لسان المسيح عليه السلام سريانياً كان أو عبرانيا وكتبوا الاناجيل باللغة اليونانية ولم يكتب في العبرية الا انجيل متى فيما يقال . ألا ترى ان اسم الانجيل نفسه يوناني ؟ كل ذلك كراهة لليهود الذين كان ينطق المسيح بلسانهم ويعظهم بلغتهم وتحرجا من النظر في دواوين آدابهم، وما توارثوا من عاداتهم

(١) اي قد يعد الاسلام من الدين الذي يتقرب به الى الله الاشتغال بعلم غير ديني بنية صالحة كنفع الناس به

﴿ الأصل الخامس للاسلام ﴾

(قلب السلطة الدينية) (١)

هذا أصل من اصول الاسلام أنتقل اليه وما أجله من أصل — قلب السلطة الدينية والاتيان عليها من أساسها . هدم الاسلام بناء تلك السلطة ومحا أثرها حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم ما لم يدع الاسلام لاحد بعد الله ورسوله سلطانا على عقيدة احد ولا سيطرة على إيمانه (على ان الرسول عليه السلام كان مبلغا ومذكرا لا مهيمنا ولا مسيطرا ، قال الله تعالى « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » ولم يجعل لاحد من أهله أن يعلل ولا أن يربط لا في الارض ولا في السماء . بل الايمان يعتق المؤمن من كل رقيب عليه فيما بينه وبين الله سوى الله وحده ، ويرفع عنه كل رق الا العبودية لله وحده ، وليس لمسلم مهما علا كعبه في الاسلام على آخر مهما انحطت منزلته فيه الا حق النصيحة والارشاد . قال تعالى في وصف الناجين : « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » وقال : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » وقال : فلولا

(١) هذا الاصل ضد الاصل الثاني من أصول النصرانية
راجع صحيفة ٢٣

نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » فالمسلمون يتناصحون ثم هم يقيمون أمة تدعو الى الخير وهم المراقبون عليها يردونها الى السبيل السوي اذا انحرفت عنه . وتلك الامة ليس لها فيهم الا الدعوة والتذكير والانذار والتحذير ، ولا يجوز لها ولا لاحد من الناس أن يتبع عورة أحد . ولا يسوغ لقوي ولا لضعيف أن يتجسس على عقيدة أحد ، وليس يجب على مسلم أن يأخذ عقيدته أو يتلقى أصول ما يعمل به عن أحد الا عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم : لكل مسلم ان يفهم عن الله من كتاب الله وعن رسوله من كلام رسوله بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف وانما يجب عليه قبل ذلك أن يحصل من وسائله ما يؤهله للفهم كقواعد اللغة العربية وآدابها وأساليبها وأحوال العرب خاصة في زمان البعثة وما كان الناس عليه زمن النبي صلى الله عليه وسلم وما وقع من الحوادث وقت نزول الوحي ، وشيء من الناسخ والمنسوخ من الآثار . فان لم تسمح له حاله بالوصول الى ما يعده لفهم الصواب من السنة والكتاب فليس عليه الا أن يسأل العارفين بهما . وله بل عليه أن يطالب المجيب بالدليل على ما يجيب به سواء كان السؤال في امر الاعتقاد أو في حكم عمل من الاعمال فليس في الاسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه

﴿ السلطان في الاسلام ﴾

لكن الاسلام دين وشرع فقد وضع حدوداً ،ورسم حقوقاً، وليس كل معتقد في ظاهر أمره بحكم يجرى عليه في عمله . فقد يغلب الهوى . وتتحكم الشهوة . فيغمط الحق . أو يتعدى المعتدي الحد . فلا تكمل الحكمة من تشريع الاحكام الا اذا وجدت قوة لاقامة الحدود . وتنفيذ حكم القاضي بالحق. وصون نظام الجماعة. وتلك القوة لايجوز أن تكون فوضى في عدد كثير فلا بدأن تكون في واحد وهو السلطان أو الخليفة

الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم . ولا هو مهبط الوحي . لا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة . نعم شرط فيه أن يكون مجتهداً أي أن يكون من العلم باللغة العربية وما معها مما تقدم ذكره بحيث يتيسر له أن يفهم من الكتاب والسنة مايحتاج اليه من الاحكام، حتى يتمكن بنفسه من التمييز بين الحق والباطل، والصحيح والفاسد ، ويسهل عليه إقامة العدل الذي يطالبه به الدين والامة معاً

هو على هذا — لا يخصه الدين في فهم الكتاب والعلم بالاحكام بمزية ولا يرتفع به الى منزلة ، بل هو وسائر طلاب الفهم سواء ،

إنما يتفاضلون بصفاء العقل، وكثرة الإصابة في الحكم، (١) ثم هو مطاع مادام على المحجة، ونهج الكتاب والسنة، والمسلمون له بالمرصاد فاذا انحرف عن النهج أقاموه عليه، واذا أخطأ سددوه بالنصيحة والاعذار اليه، (٢) «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» (٣) فاذا فارق الكتاب والسنة في عمله، وجب عليهم ان يستبدلوا به غيره، ما لم يكن في استبداله مفسدة تفوق المصلحة فيه. (٤)

فالامة أو نائب لامة هو الذي ينصبه، والامة هي صاحبة الحق في السيطرة عليه، وهي التي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها، فهو حاكم مدني من جميع الوجوه.

ولا يجوز لصحيح النظر ان يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الافرنج (تيوكراتيك) أي سلطان إلهي. فان ذلك عندهم هو الذي ينفرد بتلقي الشريعة عن الله وله حق الامرة بالشريع

«١» المنار من شواهد ذلك ارتفاع قدر العلماء على الخلفاء الذين قصروا عنهم في الفهم والعلم، الم يأتك نبأ الامام مالك مع الخليفة هرون الرشيد «رحمهما الله» وكيف انزل الامام الخليفة عن الخصوصية مع العامة عند القاء الدرس لانه في رتبه المستفيد «٢» من قوله قول الخليفه الاول رضي الله عنه في خطبته «وان زغت فقوموني» راجع ٧٣٤ من مجلد المنار الرابع «٣» حديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما «راجع ٣٢» من مجلد المنار الرابع «٤» مثال ذلك ان يكون له عصبية اقوى من الامة يخشى ان يبيدها بها «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح»

وله في رقاب الناس حق الطاعة، لا بالبيعة، وما تقتضيه من العدل وحماية الحوزة بل بمقتضى الايمان فليس المؤمن مادام مؤمنا أن يخالفه، وان اعتقد أنه عدو لدين الله، وشهدت عيناه من اعماله ما لا ينطبق على ما يعرفه من شرائعه، لان عمل صاحب السلطان لديني وقوله في أي مظهر ظهرا هما دين وشرع. هكذا كانت سلطة الكنيسة في القرون الوسطى. ولا تزال الكنيسة تدعي الحق في في هذه السلطه كما سبقت الاشارة اليه

كان من أعمال التمدن الحديث الفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية فترك للكنيسة حق السيطرة على الاعتقاد والاعمال فيما هو من معاملة العبد لربه: تشرع وتنسخ ماتشاء، وتراقب وتحاسب كما تشاء، وتحرم وتعطي كما تريد، وخول السلطة المدنية حق التشريع في معاملات الناس بعضهم لبعض، وحق السيطرة على ما يحفظ نظام اجتماعهم، في معاشهم لا في معادهم، وعدوا هذا الفصل منبعا للخير الاعم عندهم. ثم هم يهمون فيما يرمون به الاسلام من أنه يحتم قرن السلطتين في شخص واحد. ويظنون أن معنى ذلك في رأي المسلم أن السلطان هو مقرر الدين، وهو واضع أحكامه وهو منفذها والايمان آلة في يده يتصرف بها في القلوب بالاخضاع، وفي العقول بالاقناع، وما العقل والوجدان عنده الا متاع، ويبنون على ذلك أن المسلم مستعبد لسلطانه بدينه

وقد عهدوا أن سلطان الدين عندهم كان يحارب العلم . ويحمي حقيقة الجهل ، فلا يتيسر للدين الاسلامي أن يأخذ بالتسامح مع العلم مادام من أصوله أن إقامة السلطان واجبة بمقتضى الدين . وقد تبين لك أن هذا كله خطأ محض وبعد عن فهم معنى ذلك الاصل من أصول الاسلام . وعلمت أن ليس في الاسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة الى الخير ، والتنفير عن الشر ، وهي سلطة خولها الله لادنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم ، كما خولها لاعلاهم يتناول بها من أدناهم ، ومن هنا تعلم « الجامعة » أن مسألة السلطان في دين الاسلام ليست مما يضيق به صدره ، وتحرج به نفسه عن احتمال العلم ، وقد تقدم مايشير الى ماصنع الخلفاء العباسيون والامويون الاندلسيون من صنائع المعروف مع العلم والعلماء : وربما أتينا على شيء آخر منه فيما بعد

يقولون : ان لم يكن للخليفة ذلك السلطان الديني أفلا يكون للقاضي أو للمفتي أو شيخ الاسلام ؟ وأقول : إن الاسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتقرير الاحكام ، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية قررها الشرع الاسلامي ، ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعي حق السيطرة على إيمان أحد أوعبادته ربه أو ينازعه في طريق نظره

﴿ الاصل السادس للاسلام ﴾

(حماية الدعوة لمنع الفتنة)

قالوا : ان الدين الاسلامي دين جهادي شرع في القتال ولم يكن شرع في الدين المسيحي ففي طبيعة الدين روح الشدة على من يخالفه وليس فيها ذلك الصبر والاحتمال اللذان تقضي بهما شريعة المسالمة وهي الشريعة التي وردت فيه كثير من الوصايا المسيحية « من ضربك على خدك الايسر فادر له خدك الايمن من سخرك ميلا فسر معه ميلين » ونحو ذلك ، حتى لقد طلبت فيها محبة العدو مما لا يدخل تحت الاختيار بل ولا محبة الصديق وانما الاختياري العدل بين الاعداء والاولياء . لكن في ملكوت الله كل شيء مستطاع ولا شيء فيه بمستحيل . قلنا : لكن انظروا هل دفع الشر بالشر عند القدرة عليه وعند عدم التمكن من سواه خاص بالدين الاسلامي أو هو في طبيعة كل قادر يعذر الى خصمه ؟ . ليس القتل في طبعية الاسلام بل في طبيعته العفو والمسامحة : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ولكن القتال فيه لرد اعتداء المعتدين على الحق وأهله الى أن يأمن شرهم ويضمن السلامة من غوائلهم ، ولم يكن ذلك للا كراه على الدين ولا للانتقام من مخاليفه

ولهذا لاتسمع في تاريخ الفتوح الاسلامية ماتسمعه في الحروب المسيحية ، عندما أقتدر أصحاب «شريعة المسالمة» على محاربة غيرهم من قتل الشيوخ والنساء والاطفال

لم تنع حرب اسلامية بقصد الابادة كما وقع كثير من الحروب بهذا القصد بأيدي المسيحيين . وإنما كان الصبر والمسالمة دينا عند ما كانت القدرة والقوة تعوزان الدين . وغاية ما يقال إن العناية الالهية منحت الاسلام في الزمن القصير من القوة على مدافعة اعدائه مالم تمنحه لغيره في لزمن الطويل . فتيسر له في شبيبته مالم يتيسر لغيره الا في كهولته أو شيخوخته .

﴿ مقابلة بين الاسلام الحربي ﴾
(والمسيحية السلمية)

الاسلام الحربي كان يكتفي من الفتح بادخال الارض المفتوحة تحت سلطانه ثم يترك الناس وما كانوا عليه من الدين يؤدون مايجب عليهم في اعتقادهم كما شاء ذلك الاعتقاد . وانما يكلفهم بجزية يدفعونها لنكون عونا على صيانتهم والمحافظة على أمنهم في ديارهم وهم في عقائدهم ومعابدهم وعاداتهم بعد ذلك أحرار لايضايقون في عمل ولا يضامون في معاملة . خلفاء المسلمين كانوا يوصون قوادهم باحترام العبّاد الذين انقطعوا عن العامة في الصوامع والاديار لمجرد العبادة

كما كانوا يوصونهم باحترام دماء النساء والاطفال ، وكل من لم يعن على القتال ، جاءت السنة المتواترة بالنهي عن ايذاء أهل الذمة و بتقرير مالهم من الحقوق على المسلمين « لهم مالنا وعليهم ما علينا » و «من آذى ذميا فليس منا » واستمر العمل على ذلك ما استمرت قوة لاسلام . ولست أبالي اذا انحرف بعض المسلمين عن هذه الاحكام ، عند ما بدأ الضعف في الاسلام ، — وضيق الصدر من طبع الضعيف — فذلك مما لا يلصق بطبيعته ، ويخلط بطينته

المسيحية السلمية كانت ترى لها حق القيام على كل دين يدخل تحت سلطانها تراقب أعمال أهله وتخصصهم دون الناس بضروب من المعاملة لا يحتملها الصبر مهما عظم . حتى اذا تمت لها القدرة على طردهم ، بعد العجز عن إخراجهم من دينهم وتعميدهم ، أجلتهم عن ديارهم ، وغسلت الديار من آثارهم ، كما حصل ويحصل في كل أرض استولت عليها أمة مسيحية استيلاء حقيقا

لا يمنع غير المسيحي من تعدي المسيحي الا كثرة العدد ، أو شدة العضد ، كما شاهد التاريخ وكما يشهد كاتبوه . ذلك كله لانه ماجاء ليلقي سلاما بل سيفا ولانه جاء ليفرق بين البنت وأمها والابن وأبيه (١)

(١) هذا نص انجيل متى في هذا . ومثله قول انجيل لوقا ١٤ — ٢٥ و ٢٦ (وقال لهم (يسوع) ان كان احد ياتي الي ولا يبغض اباه وأمه وامرأته واولاده واخوته واخوانه حتى نفسه ايضا فلا يقدر أن

والاسلام يقول كتابه في شأن الوالدين المشركين :(وان جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبل من أناب الي) فهو في اشتداده على المهددين لامته لا يقضي بالفرقة

يكون لي تلميذا) وفي الباب ١٩ من هذا الانجيل مانصه (٢٧ اما اعدائي اولئك الذين لم يريدوا ان أملك عليهم فاتوا بهم الي هنا واذبحوهم قدامي). واما اسفار التوراة فقد جاء فيها نحو ذلك في القسوة على الاهلين المخالفين وعلى سائر المحاربين . قال في ١٣ : ٩ من تثنية الاشتراع (واذا اغواك سرا اخوك ابن امك او ابنك او ابنتك او امراة حضنك او صاحبك الذي مثل نفسك قائلا نذهب ونعبد آلهة اخرى لم تعرفها انت ولا آباؤك من آلهة الشعوب القريبين منك او البعيدين عنك من اقصاء الارض الى اقصائها فلا ترض منه ولا تسمع له ولا تشفق عينك عليه ولا ترق له ولا تستره بل قتلا تقتله : الخ)

وفي سفر التثنية ايضا (٢٠ : ١٠ — ١٦) مانصه (حين تقرب من مدينة لتحاربها الى الصلح فان اجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك . وان لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها واذا دفعها الرب الهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف واما النساء والاطفال والبهائم وكل مافي المدينة كلها غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتاكل غنيمة اعدائك الذي اعطاك الرب الهك . وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة جدا منك التي ليست من مدن هؤلاء الامم هنا . واما مدن هؤلاء الشعوب الي يعطيك الرب الهك نصيبا فلا تستبق منهم نسمة ما)

بين أب وابن ولا بين أم وبنت : بل يأمر الاولاد المؤمنين أن يصحبوا الوالدين المشركين بالمعروف في الدنيا مع محافظتهم على دينهم

فأنت ترى الاسلام من جهة يكتفي من الامم والطوائف التي يغلب على أرضها بشيء من المال أقل مما كانوا يؤدونه من قبل تغلبه عليهم ؟ و بأن يعيشوا في هدوء لا يعكرون معه صفو الدولة ولا يخلون بنظام السلطة العامة . ثم يرخي لهم بعد ذلك عنان الاختيار في شؤونهم الخاصة بهم لا رقيب عليهم فيها الا ضمائرهم . ومن جهة أخرى ينهى أفراد المؤمنين عن مقاطعة ذوي قرباهم من المشركين و يطالبهم بحسن معاملتهم . ففي طبيعته أن يكل أمر الناس في سرائرهم الى ربهم ، وفي طبيعته أن يجير من لا يعتقد عقيدته ، ويحمي من لا يتبع سنته ، وان كان في عمى من الجهالة وخبل من الضلالة ، أفترى أنه يصعب عليه بعد ذلك أن يحتمل العلم والعلماء و يضيق به حلمه عن صنع الجميل بالفضل والفضلاء ، ممن ينفق عمره في تقرير حقيقة ، أو كشف غامض أو تبيين طريقة كلا ثم كلا ، فمن بحث ونقب ، وسبر ونقر ، أو شق الارض ، أو ارتقى الى السماء ، فهو في أمن من أن يعرض الاسلام له في شيء من عمله الا أن يحدث شغبا ، أو يفسد أدبا ، فعند ذلك تمتد يد الملك لرد كيد الكائد ، واصلاح الفاسد ، بسماح من الدين

﴿ الاصل السابع للاسلام ﴾

(مودة المخالفين في العقيدة) (١)

المصاهرة — أباح الاسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية نصرانية كانت أو يهودية وجعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها ، والقيام بفروض عبادتها . والذهاب الى كنيستها أو بيعتها وهي منه بمنزلة البعض من الكل وألزم له من الظل ، وصاحبته في العز والذل ، والترحال والحل ، بهجة قلبه ، وريحانة نفسه ، وأميرة بيته ، وأم بناته وبنيه ، تتصرف فيهم كما تتصرف فيه ، لم يفرق الدين في حقوق الزوجية بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية . ولم تخرج الزوجة الكتابية باختلافها في العقيدة مع زوجها من حكم قوله تعالى : « ومن آياته ان جعل لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » فلها حظها من المودة ، ونصيبها من الرحمة وهي كما هي ، وهو يسكن اليها كما تسكن اليه وهو لباس لها كما أنها لباس له أين أنت من صلة المصاهرة التي تحدث بين أقارب الزوج وأقارب الزوجة وما يكون بين الفريقين من الموالاة والمناصرة

(١) هذا الاصل الاسلامي هو ضد الاصل السادس للنصرانية (راجع ٢٨)

علي ما عهد في طبيعة البشر؟ وما أجلى ما يظهر من ذلك بين الاولاد وأخوالهم ،وذوي القربى لوالدتهم ، أيغيب عنك ما يستحكم من ربط الالفة بين المسلم وغير المسلم بأمثال هذا التسامح الذي لم يعهد عند من سبق ولا فيمن لحق من أهل الدينين السابقين عليه (١) ولا يخفى على صحيح النظر أن تقرير التسامح على هذا الوجه في نشأة الدين مما يعود القلوب على الشعور بأن الدين معاملة بين العبد وربه ، والعقيدة طور من أطوار القلوب ، يجب أن يكون أمرها بيد علام الغيوب ، فهو الذى يحاسب عليها وأما المخلوق فلا تطول يده اليها ، وغاية ما يكون من العارف بالحق أن ينبه الغافل ، ويعلم الجاهل ،وينصح للغاوي ويرشد الضال. لايكفر في ذلك نعمة العشير ولا يسلك به مسالك التعسير ولا يقطع أمل النصير ولا يخالف سنة

---

(١) المنار — يقول بعض النصارى : اذا كان الاسلام اباح للمسلم ان يتزوج بالكتابية ليعلم البشر التالف والتعاطف مع التباين في العقيدة والتحالف . فلماذا لم يسمح للكتابي ان يتزوج بالمسلمة لهذا الغرض ؟ والجواب ان الرجال قوامون على النساء لانهم اقوى منهن فليس من العدل ولا من الرحمة ان يسمح لقوي يفرق دينه بينه وبين زوجته الضعيفة ويامره ببغضها وبغض اولاده ووالده اذا خالفوا عقيدته ان يتزوج بامراة مخالفة . اباح الاسلام ذلك لمن يعمل بما امر من العدل والرحمة وهو المسلم

الوفاء ولا يحيد عن شرائع الصدق في الولاء.

ماذا ترى في الزوجة الكتابية لو كانت من أهل النظر العقلي وذهبت مذهباً يخالف مذهب زوجها. أفينقص ذلك من مودته لها؟ أو يضعف من شعور الرحمة التي أفاضها الله بينه وبينها فاذا كان المسلم يتعود الاحتمال بل يتعود المحبة والنصرة لمن يخالفه في عقيدته ودينه وملته ويألف مخالطته وعشرته وولايته ونصرته. أتراه لا يحتمل أن يرى بجواره من يعمل نظره في نظام الخليقة ليصل منه الى اكتشاف سر؟ أو تقرير أصل في علم أو قاعدة لصناعة؟ إن كان قد يخالف ظاهراً مما يعتقد؟ أو يميل الى رأي غير الذي يجد؟ أفلا يسع هذا ما يسع المجاهر بالخلاف وهو معه على ما رأيت من الائتلاف. ؟؟

لو ذهبت أعد ما في طبيعة الاسلام من عناصر وأركان كلها تؤلف مزاج الكرم وتكون حقيقة المسامحة مع العلم لاطلت على القارىء أكثر مما أطلت. ولهذا أرى من الواجب علي أن أختم القول بذكر أصل أشرت اليه ولا غنى لما نحن فيه عن ذكره

﴿ الاصل الثامن للاسلام ﴾

(الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة) (١)

الصحة — الحياة في الاسلام مقدمة على الدين. أوامر الحنيفية

(١) هذا الاصل ضد الاصل الثالث للنصرانية (راجع ص ٢٤)

السمحة ان كانت تختطف العبد الى ربه وتملا قلبه من رهبته وتفعم أمله من رغبه فهى مع ذلك لا تأخذه عن كسبه ولا تحرمه من التمتع به ولا توجب عليه تقشف الزهادة ولا تجشمه في ترك اللذات ما فوق العادة

صاحب هذا الدين صلى الله عليه وسلم لم يقل « بع ما تملك واتبعني » ولكن قال لمن استشاره فيما يتصدق به من ماله «الثلث والثلث كثير انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » (٢)

الرخص — فرض الصوم على المؤمنين لكن اذا خشي منه المرض أو زيادته أو زادت المشقة فيه جاز تركه بل قد يجب اذا غلب على الظن الضرر فيه . الوضوء والغسل من شروط الصحة للصلاة الا اذا خشي منه الضرر أو عرضت مشقة في تحصيل الماء . القيام

---

(٢) المنار — يشير الكاتب الى حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وقد رواه البخاري ومسلم واصحاب السنن الاربعة . كان سعد مريضا فى حجة الوداع فعاده النبي صلى الله عليه وسلم وكان عازما على الصدقة بثلثي ماله وفي رواية بماله كله فسأله النبي عما ترك لولده فقال هم اغنياء . وفى رواية الجماعة انه لم يكن له الا بنت . وفي رواية احمد والنسائى انه امره اولا بان يتصدق بالعشر . والحاصل انه مازال يراجعه حتي رضي صلي الله عليه وسلم بالثلث وحرم الزيادة بالحديث

مما لا تصح الصلاة الا به إلا اذا أصابت المصلي مشقة فيه فيسقط ويصلي قاعدا . السعي الى الجمعة واجب الا اذ كان وحل غزير أو مطر كثير أو ما يوجب تعباً ومشقة فيسقط . وهكذا تجد القاعدة قد عمت «صحة الابدان ، مقدمة على صحة الاديان »فترى الدين قد راعى في أحكامه سلامة البدن كما أوجب العناية بسلامة الروح

الزينة والطيبات — أباح الاسلام لاهل التجمل بأنواع الزينة والتوسع في التمتع بالمشتهيات، على شريطة القصد والاعتدال وحسن النية ، والوقوف عند الحدود الشرعية ، والمحافظة على صفات الرجولية جاء في الكتاب العزيز (يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا وشربوا ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين * قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون * قل انما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وان تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله مالا تعلمون) (سورة الاعراف)

ثم عد الله انعم والجمال والزينة من نعمه علينا التي يذكرنا بها فضله . ويهيج بها نفوسنا لذكره وشكره . كما قال : « والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم الى بلدلم تكونوا بالغيه الا بشق

الانفس ان ربكم لرؤف رحيم ٥ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون » ثم قال : «وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » (سورة النحل)

الاقتصاد — ووضع قانونا للانفاق وحفظ المال في قوله : « إن المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » (سورة الاسراء)

النهي عن الغلو في الدين

وخشي على المؤمن أن يغلو فى طلب الآخرة فيهلك دنياه وينسى نفسه منها فذكرنا بما قصه علينا ان الآخرة يمكن نيلها مع التمتع بنعم الله علينا في الدنيا اذ قال : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الارض ان الله لا يحب المفسدين» (سورة القصص)

فترى ان الاسلام لم يبخس الحواس حقها كما أنه هيأ الروح لبلوغ كمالها . فهو الذى جمع للانسان أجزاء حقيقته واعتبره حيوانا ناطقا ، لا جسمانيا صرفا، ولا ملكوتيا بحتا . جعله من أهل الدنيا كما

هو من أهل الآخرة . واستبقاه من أهل هذا العالم الجسداني . كما دعاه الى أن يطلب مقامه الروحاني . أليس يكون بذلك وبما بينه في قوله . «هو الذى خلق لكم مافي الارض جميعا» قد أطلق القيد عن قواه . لتصل من رفه الحياة (مع القصد) الى منتهاه والنفوس مطبوعة على التنافس، قد غرز فيها حب التسابق فيما تعتقده خيراً أو تجده لذيذاً أو تظنه نافعاً

وليس في الغزيرة الانسانية أن يقف بها الطلب عند حد محدود، أو ينتهي بها السعي الى غاية لا مطلع للرغبة وراءها بل خصها الله بالمكنة من الرقي في أطوار الكمال من جميع وجوهه الى ماشاء الله أن ترقى بدون حد معروف

نتيجة — فاذا جمع سائق الانفس ومزجيها . ومرشدها وهاديها بين شاحذين شاحذ التمتع بمتاع الحياة الدنيا . وشاحذ الرغبة في النعيم الدائم في الاخرة، فقد جمع لها كل ما يسمو بها عن الرضاء في الدنيا بالدون وفي الآخرة بعذاب الهون فترى كل نفس تمضي مع استعدادها بشهامة فؤادها مضاء الزميع (١) لاتخشى العثرة بالوعيد ولا تقعد عن مطلبها قعدة الرعديد (٢) فتطلب منافعها من هذا الكون الذي وجدت فيه ووجد لها فتسير في مناكب الارض ولا

«١» هو الحازم القوي العزيمة يرمع على الامر فيمضي فيه ولا يثني والجيد الراي المقدام «٢» الرعديد الجبان الكثير الارتعاد

تكتفي عن الكل بالبعض وتبحث في تربتها ولا يقف بها ظاهرها عن باطنها، ولا يحجبها ظهرها عن مد يدها الى مافي جوفها ولا تجد مايصدها عن النظر في الهواء ،والبحث في الماء ، والاهتداء بنجوم السماء ، بعدمعرفة مواقعها وحركاتها فى مداراتها واستقامتها ، وانحرافها وظهورها وخنوسها ، وبالجملة فكل مستعد لوجه من وجوه النظر أو الولوج في باب من أبواب العلم . ينطلق الى حيث يبلغ به استعداده إما للنجاة من ضرورة وإما لاستتمام منفعة أو استكمال لذة لا يجد من نواهي الدين ما يصده عن مطلب ولا ما يكف يده عن تناول رغيبة، أين هذا من ذلك الذي لا يرى الخلاص الا في مجافاة هـذا العالم ولذائذه، ويجد ان الغنى والثروة من الحجب التي لا تخرق، تحول بينه وبين ملكوت السموات

كيف يتسنى للمسلم أن يشكر الله حق شكره ، اذا لم يضع العالم بأسره تحت نظر فكره لينفذ من ظاهره الى سره، ويقف على قوانينه وشرائعه، ويستخدم كل ما يصلح لخدمته في توفير منافعه ؟ كيف يشكر الله اذا توانى فى ذلك وقد أرشده الله في كتابه و بسنة نبيه الى أن عالمه إنما خلق لاجله ، وقد وضعه الله تحت تصرف عقله . انظر الى لطف الاشارة في الآية المتقدمة «قل من حرم زينة الله » الخ حيث قال : « كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » فأهل العلم هم الذين يعرفون مقدار نعم الله تعالى فيما يرفه به معيشتهم ويجمل به هيأتهم ويجلي به زينتهم

المسلمون مسوقون بنابل من دينهم الى طلب مايكسبهم الرفعة والسؤدد والعزة والمجد ولا يرضيهم من ذلك مادون الغاية . ولا يتوفر شيء من وسائل ذلك الا بالعلم - فهم محفوزون أشد الحفز الى طلب العلم وتلمسه في كل مكان وتلقيه من أية شفة وأي لسان فاذا لاقاهم العالم في أي سبيل . أو عثروا به في أي جبل : أو ظهر لهم من أي قبيل هشوا له وبشوا ونصبوا اليه وكمشوا (١) وشدوا به أو اصرهم . وعقدوا عليه خناصرهم ولا يبالون ماتكون عقيدته . اذا نفعتهم حكمته « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » (٢) ألم يأتهم عن ربهم : « يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا اولو الالباب » ألم يسمعوا في وصفهم قوله : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » ذلك شأن المسلم مع العلم اذا كان مسلما حقا وذلك ما تنجر اليه طبيعة دينه. وحديث « اطلبوا العلم ولو بالصين » (٣) ان كان في سند لفظه

(١) المنار — لعل نصبوا من نصب السير وهو أن يسير طول يومه سيرا الينا . وكمش الرجل كان سريعا ماضيا . وكمش كماشة شجع واسرع

(٢) حديث رواه الترمذي عن أبي هريرة ورواه غيره بالفاظ أخرى والمعنى واحد. ومنه رواية موقوفة على ابن عمر رضي الله عنهما « خذ الحكمة ولا يضرك من أي وعاء خرجت » وفي رواية عن علي كرم الله وجهه « الحكمة ضالة المؤمن فخذ الحكمة ولو من اهل النفاق

« ٣ » رواه ابن عدي في الكامل والبيهقي في شعب الايمان والمدخل وابن

الى النبي صلى الله عليه وسلم مقال فسند معناه متواتر فانه سند القرآن نفسه فان الله يفضل العلم وأهل العلم بدون قيد ولا تخصيص فالمسلم مطالب بطلب العلم ولو في الصين ولم يكن في الصين مسلم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم

لا شيء ينقلب عند النفس الانسانية لذة بنفسه وان كان في أول أمره مطلوبا لغيره ، مثل العلم ، تطلب العلم أولا لحاجتك اليه في تقويم معيشة ، أو ترفيه حال . أو دفاع عن نفس وملة ، ثم لا تلبث اذا أو غلت فيه أن تجد اللذة في العلم نفسه فتصير اللذة بتحصيله والوصول الى دقائقه غاية تقصد بنفسها ، وتضمحل فيها كل غاية سواها ، وعلة ذلك ظاهرة فان العلم مسرح نظر العقل ، والعقل قوة من أفضل القوى الانسانية ، بل هي أفضلها على الحقيقة . وقد وضع له العليم الحكيم لذة كما منح لكل قوة سواها نعيما ولذة . ولست في حاجة الى تعديد لذة البصر أو السمع أو الشم أو الذوق أو اللمس فالحيوان يعرفها بله الانسان وكلما عظم اختصاص القوة بالنوع عظمت لذته باستعمالها فيما وجهت له فيمكنك أن تستنتج من ذلك أن لاشيء عند الانسان ألذ من كشف المجهول واحراز المعقول وقد سمح الاسلام للمسلم أن يتمتع في هذه الحياة الدنيا بما يلذ له مع

عبد البر في العلم والخطيب في الرحلة والديلمى فى مسند الفردوس وغيرهم وله طرق كثيرة يقوي بعضها بعضا

القصد والاعتدال . أفلا يكون من لذائذه ومتمات نعيمه أن يسيح في مملكة العلم ليمتع عقله . كما يسيح في بسيط الارض ليكسب رزقه ويقيت أهله على أن العلم كان من ضروريات معيشة المسلم أو حاجياتها كما ذكرنا فاذا طفق يستنبط ماءه للضرورة . ويستجلي سناءه للحاجة فلا يلبث أن يصير هو حاجة نفسه وشاغله عن حاجات حسه حتى يدخل معه في رمسه كما وقع لكثير من المسلمين .

قال إمام جليل من أئمتهم « طلبنا العلم لغير الله فابى أن يكون الا الله »

﴿ نتائج هذه الاصول ﴾

(وآثارها في المسلمين)

الى م أفضت طبيعة الاسلام بالمسلمين ؟ وماذا كان أثرها في أسلافهم الاولين ؟ — فتح عمرو بن العاص رضي الله عنه مصر واستولى بجيشه على الاسكندرية بعد لحاق النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بالرفيق الا على بست سنوات في رواية وتسع سنوات في رواية أخرى والاسلام في طلوع فجره وتفتح نوره . فكان من بقايا ما تركت الازمان الاولى رجل مسيحي من اليعقوبيين اسمه يوحنا النحوي كان في بدء امره ملاحا يعبر الناس بسفينته وكان

يميل الى العلم بطبيعته فاذا ركب معه بعض أهل العلم أصغى الى مذاكرتهم . ثم اشتد به الشوق فترك الملاحة واشتغل بالعلم وهو ابن أربعين سنة فبلغ فيه مالم يبلغه الناشئون فيه من طفوليتهم وقد أحسن من العلم ننونا كثيرة حتى عد من فلاسفة وقته وأطبائه ومناطقته

يقول كثير من مؤرخي الغربيين ومؤرخي المسلمين : ان عمرو ابن العاص سمع به فاستدناه منه وأكرمه لعلمه ووقعت بينهما محبة ظهر أمرها واشتهر حتى قال أحد فلاسفة الغربيين : « ان المحبة التي نشأت بين عمرو بن العاص فاتح مصر ويوحنا النحوي ترينا مبلغ ما يسمو اليه العقل العربي من الافكار الحرة والرأي العالي : بمجرد ما اعتنق من الوثنية الجاهلية ودخل في التوحيد المحمدي أصبح على غاية من الاستعداد للجولان في ميادين العلوم الفلسفية والادبية من كل نوع »

خالط المسلمون أهل فارس وسورية وسواد العراق وأدخلوهم في أعمالهم ولم يمنعهم الدين عن استعمالهم حتى كانت دفاترهم بالرومية في سورية ولم تغير بالعربية الا بعد عشرات من السنين فاحتكت الافكار بالافكار وأفضت سماحة الدين الى أن أخذ المسلمون في دراسة العلوم والفنون والصنائع

﴿ اشتغال المسلمين ﴾

(بالعلوم الادبية ثم العقلية)

بعد عشرين سنة من وفاته عليه الصلاة والسلام أخذ الخليفة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يحض على تعليم الآداب العربية ويطلب وضع القواعد لها لما رأى من حاجة الناس الى ذلك . واخذ المسلمون يتحسسون نور العلم في ظلام تلك الفتن استرسالا مع مايدعوهم اليه دينهم ، وتنبههم لطلبه شريعتهم . وان كانت الحروب الداخلية التي اشتعلت نارها في أطراف بلادهم للنزاع في أمر الخلافة قد شغلتهم عن كل شيء من مصالحهم فانها لم تشغلهم عن تلمس العلوم والتناول منها بالتدريج على سنة الفطرة . فالبراعة في الآداب من علم بوقائع العرب وتاريخهم وقول الشعر وانشاء البليغ من النثر قد بلغت في خلافة بني أمية مبلغاً لم تبلغه أمة قط في مثل مدتها ، وكان الخلفاء الامويون يعلون منزلتها ويرفعون مكانات الشعراء والخطباء والعلماء بالسير . ثم ظهرت آثار العلوم العقلية في آخر دولتهم وترجمت جملة من الكتب العقلية والصناعية قبل نهاية القرن الاول

نقل الخلفاء الامويون دار الخلافة من المدينة الى الشام ولم

يسيروا في الزهد سيرة الخلفاء الراشدين فقد جاء رسول من الفرس الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلما سأل عنه دل عليه فذهب اليه فاذا هو نائم على الارض تحت نخل البقيع بين الفقراء ، وجاءت رسل الملوك الى معاوية رحمه الله فاذا هو في قصر مشيد محلى البنيان بأجمل مايكون من الصنعة العربية ، مزين بالجنات والرياض وينابيع الماء ، مفروش بأحسن الفرش ، يرى الناظر فيه فخر الاثاث والرياش ، ولم يكن معاوية فى ذلك قد خالف لدين أو حاد عن طريقه وانما تناول مباحا وتمتع برخصة آتاه الله اياها ، ولا يخفى ما في ذلك من ترويج فنون الابداع في الصنعة على اختلاف ضروبها

﴿ اشتغالهم بالعلوم الكونية ﴾

(في أوائل القرن الثاني)

انقضت دولة بني أمية والناس في ظلمات من الفتن كما قلنا ودالت الدولة لبني العباس واستقرت في نصابها من آل بيت النبي قرب نهاية الثلث الاول من القرن الثاني للهجرة (سنة ١٣٢) ثم نقل المنصور عاصمة الملك الى بغداد فصارت بعد ذلك عاصمة العلم والمدنية أيضا وأخذ المنصور ايضا بنشء المدارس للطب والشريعة ، وكان قد جعل من زمنه ماينفقه في تعلم العلوم الفلكية ، وأكمل حفيده الرشيد ماشرع

فيه وأمر بأن يلحق بكل مسجد مدرسة لتعليم العلوم بأنواعها ، وجاء المأمون فوصلت به دولة العلم الى أوج قوتها ، ونالت به أكبر ثروتها ويقال انه حمل الى بغداد من الكتب المكتوبة بالقلم مايثقل مئة بعير وكان من شروط صلحه مع ميشيل الثالث أن يعطيه مكتبة من مكاتب الاستانة فوجد مما فيها من النفائس كتاب بطليموس فى الرياضة السماوية فأمر المأمون في الحال بترجمته وسموه بالمجسطي ولا يسهل على كاتب احصاء ماترجم من كتب العلوم على اختلافها في دولة بني العباس أبناء عم الرسول صلى الله عليه وسلم (١)

﴿ انشاؤهم دور الكتب العامة والخاصة ﴾

وقد أخذت دول الاسلام تعتني بديار الكتب عناية لم يسبقها مثلها من دول سواها حتى كان فى القاهرة في أوائل القرن الرابع مكتبة تحتوي على مئة الف مجلد منها ستة آلاف فى الطب و الفلك لا غير . وكان من نظامها أن تعار بعض الكتب للطلبة المقيمين فى القاهرة وكان فيها كرتان سماويتان احداهما من الفضة يقال ان صانعها بطليموس نفسه وأنه انفق فيها ثلاثة آلاف دينار . والثانية من البرنز، ومكتبة الخلفاء في أسبانيا بلغ مافيها ست مئة الف مجلد

(١) يلاحظ ان اشد اولئك الخلفاء عناية بالعلوم والفنون هم اعلمهم بالدين الاسلامى واشدهم محافظة عليه

وكان (فهرستها) أربعة وأربعين مجلدا. وقد حققوا أنه كان فى أسبانيا وحدها سبعون مكتبة عمومية وكان في هذه المكاتب مواضع خاصة للمطالعة والنسخ والترجمة

وبعض الخاصة كانوا يولعون بالكتب ويجعلون ديارهم معاهد دراسة لما تحتوي عليه يقال ان سلطان بخارى دعا طبيبا اندلسيا ليزوره فأجابه ان ذلك لا يمكنه لان كتبه تحتاج الى أربعمائة جمل لتحملها وهو لا يستغني عنها كلها. وكان حنين بن اسحق النسطوري فى بغداد ممن جعل في داره مكتبة عامة يفد اليها طلاب العلوم العقلية والرياضية وكان يتبرع بمذاكرتهم فيما يريدون المذاكرة فيه

﴿ انشاؤهم المدارس للعلوم وكيفية التدريس ﴾

غطي بسيط المملكة الاسلامية على سعتها بالمدارس. نقول « على سعتها » لانها زادت فى السعة على المملكة الرومانية بكثير فكنت تجد المدارس في كل الاقطار: في المنول، في التتار، من جهة المشرق، في مراكش، في فاس. في اسبانيا، من جهة المغرب

كانت طريقة الاساتذة في التدريس ان كل مدرس يعد درسه ويكتب في الموضوع الذي يلقي الدرس فيه ما يريد ان يكتب ثم يلقيه على التلامذة وهم يكتبون عنه ثم تكون هذه الدروس كتبا وأمالي تنشر بين الناس في كل علم. وهنا نبادر الى القول بأن

المؤرخين قد أجمعوا على أن جميع المقالات والكتب كانت تنشر ويتداولها الناس بدون أدنى مراقبة ولا حجر ولا نقص شيء مما كتب صاحب الكتاب غير ان مؤرخا واحدا رأيته ذكر انه قد وضع قانون في بعض الممالك الاسلامية لنشر كتب العقائد مقتضاه أن لا ينشر منها شيء الا باذن على أني لا أعلم شيئا من ذلك وقع في الممالك الاسلامية أيام كان الاسلام إسلاما

نرجع الى الكلام في المدارس الاسلامية يقول (جبون) في كلامه على حماية المسلمين للعلم في الشرق وفى الغرب: « ان ولاة الاقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء، في اعلاء مقام العلم والعلماء، وبسط اليد في الانفاق على إقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلبه وكان عن ذلك أن ذوق العلم ووجدان اللذة في تحصيله قد انتشر في نفوس الناس من سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة . أنفق وزير واحد لاحد السلاطين (هو نظام الملك) مئتي الف دينار على بناء مدرسة فى بغداد وجعل لها من الريع يصرف في شؤونها خمسة عشر ألف دينار فى السنة. وكان الذين يغذون بالمعارف فيها ستة آلاف تلميذ فيهم ابن أعظم العظماء فى المملكة وابن أفقر الصناع فيها غير أن الفقير ينفق عليه من الريع المخصص للمدرسة وابن الغني يكتفي بمال أبيه والمعلمون كانوا ينقدون رواتب وافرة » اه

انقسمت الممالك الاسلامية في زمن من الازمان الى ثلاثة أقسام وتنازع الخلافة ثلاث شيع كان العباسيون في آسيا (الشرق) والامويون في الاندلس من أوربا (الغرب) والفاطميون في مصر من افريقيا (الوسط) ولم يكن تنافس هذه الدول الثلاث قاصرا على الملك والسلطان ولكن كان التنافس أشد التنافس في العلم والادب وكان مرصد سمرقند قائما في ناحية المشرق يشير الى ما كان عليه المشرقيون من العناية برياضة الافلاك، ومرصد جيرالد في الاندلس يجيبه بأن أهل المغرب ليسوا بأحط منهم في الادراك،

* جميع المدارس في البلاد الاسلامية أخذت نظام الامتحان في المدارس الطبية من مدرسة الطب في القاهرة. وكان من أشد النظامات وأدقها، ولم يكن لطبيب أن يمارس صناعته الا على شريطة أن تكون بعد شهادة بأنه فاز في الامتحان على شدته، وأول مدرسة طبية أنشئت في قارة أوربة على هذا النظام المحكم هي التي أنشأها العرب في (ساليرن) من بلاد ايطاليا وأول مرصد فلكي أقيم في أوربا هو الذي أقامه العرب في أشبيلية من بلاد اسبانيا

ولع المسلمون بالعلوم الكونية على اختلافها، والفنون الادبية بجميع أنواعها، حتى القصص والاساطير الخيالية، في الاحوال الاجتماعية. وابتدأوا بأخذ العلم عن اليونانية والسريانية وأخذوا

ينقلون كتب الاولين من تلك الالسن الى اللغة العربية بالترجمة الصحيحة. وكان مترجموهم في أول الامر مسيحيين وصابئين وغيرهم ثم تعلم كثير من علماء المسلمين اللسان اليوناني واللاتيني وكتبوا معاجم في اللسانين وذلك كله ليأخذوا العلوم من أصولها وينقلوها الى لسانهم على حسب ما يصل اليه علمهم فيها. وكان المعلمون لابناء العظماء في أول الامر من المسيحيين واليهود، ثم أنشئت المدارس الجامعة وكان المدرسون فيها من كل ملة ودين كل يعلم العلم الذي عرف هو بالبراعة فيه

﴿ علوم العرب واكتشافاتها ﴾

كان علم العرب في أول الامر يونانيا لكنه لم يلبث كذلك الا دون قرن واحد ثم صار عربيا ولم يرض العربي أن يكون تلميذا لارسطو وأفلاطون أو اقليدس أو بطليموس زمنا طويلا كما بقي الاوربي كذلك عشرة قرون كاملة من التاريخ المسيحي

قالوا: إن (باكون) هو أول من جعل التجربة والمشاهدة قاعدة للعلوم العصرية أو أقامها مقام الرواية عن الاساتذة والتمسك بآراء المصنفين. وأطلق العلم من رق التقليد: ذلك حق في أوربا وأما عند العرب فقد وضعت هذه القاعدة عندهم لبناء العلم عليها في أواخر القرن الثاني من الهجرة.

أول شيء تميز به فلاسفة العرب عمن سواهم من فلاسفة الامم هو بناء معارفهم على المشاهدات والتجربيات، وأن لا يكتفوا بمجرد المقدمات العقلية في العلوم ما لم تؤيدها التجربة حتى لقد نقل جوستاف لوبون عن أحد فلاسفة الاوربيين أن القاعدة عند العرب هي « جرب وشاهد ولاحظ تكن عارفا » وعند الاوربي الى ما بعد القرن العاشر من التاريخ المسيحي « اقرأ في الكتب وكرر ما يقول الاساتذة تكن عالما » (فلينظر المصريون وغيرهم من الشرقيين كيف انقلبت الحال، وما ذا أعقب من سوء المآل)

قال (ديلامبر)في تاريخ علم الهيئة : « اذا عددت في اليونانيين اثنين أو ثلاثة من الراصدين أمكنك أن تعد في العرب عدداً كبيرا غير محصور » وأما في الكيمياء فلا يمكنك أن تعد مجربا واحدا عند اليونانيين ولكنك تعد من المجربين مئين عند العرب ، لهذا عدت الكيمياء الحقيقية من اكتشاف العرب دون سواهم . وقد كانوا يعدون الهندسة والفنون والرياضة من الآلات المنطقية ، يستعملونها في الاستدلال على القضايا النظرية . وهي من أصدق الادلة في الايصال الى المجهولات كما هو معروف

العرب هم أول من استعمل الساعات الدقاقة للدلالة على أقسام الزمن وهم أول من أتقن استعمال الساعات الزوالية لهذا الغرض قد اكتشفوا قوانين ثقل الاجسام جامدها ومائعها حتى وضعوا لها

جداول في غاية الدقة والصحة كما وضعوا جداول الارصاد الفلكية وكانت تلك الجداول معروفة يطلع عليها الناظرون في سمرقند وبغداد وقرطبة حتى لقد وصلوا بتلك القوانين الى ما يقرب من اكتشاف الجاذبية

لا يمكنني في مقالي هذا أن أعد ما اكتشف العرب ولا ما زادوه في العلوم على اختلاف انواعها فذلك يحتاج الى سفر كبير . وقد أحصى ذلك أهل المعرفة والانصاف من فلاسفة الاوربيين ومؤرخيهم وربما يتيسر لابناء الامة العربية ن ينشروا ذلك لاخوانهم حتى يعرفوا ما كان عليه اسلافهم. (١) ولكنني أذكر كلمة قالها بعض حكماء الغربيين (٢) :

« تأخذنا الدهشة أحيانا عند ما ننظر في كتب العرب فنجد آراء كنا نعتقد أنها لم تولد الا في زماننا كرأي الجديد في ترقي الكائنات العضوية وتدرجها في كل أنواعها فان هذا لرأي كان مما يعلمه العرب في مدارسهم وكانوا يذهبون به الى أبعد مما ذهبنا فكان عندهم عاما يشمل الكائنات غير العضوية والمعادن . والاصل الذي بنيت عليه الكيمياء عندهم هو ترقي المعادن في أشكالها . قال الخازني اذا سمع الشعب الجاهل ما يقال بين العلماء : ان الذهب قد تقلب في الاشكال المختلفة حتى صار ذهبا ، من هذا أنه مر في صور معادن

«١» المنار : قد نشرنا جملة صالحة من ذلك في مقالات (مدينة العرب) المجلد الثالث «٢» هو الفيلسوف درابر الامريكاني

أخرى فكان رصاصا ثم قصديرا ثم صفرا ثم فضة ثم صار بعد ذلك ذهبا ولا يعلم أن الفلاسفة اذا قالوا ذلك فانما يقصدون منه ما أرادوه من قولهم في الانسان انه وصل الى حالته الحاضرة بالتدريج ومن طريق الترقي وهم لم يعنوا بقولهم هذا أنه تقلب في صور الانواع المختلفة كأن كان ثورا ثم حمارا ثم فرسا ثم قردا ثم صار بعد ذلك انسانا » اه

ويقول النيلسوف كوستاف لبون : « ان العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين »

وهنا أنكر على بعض فلاسفتهم ما نقلوه عن ابن رشد من أنه ذهب في حرية الرأي الى نقض أصل الدين وقال: إن الروح لا بقاء لها بعد فناء الجسد وإنما الذي يبقى هي أرواح الانواع . فان هذا خطأ عرض لهم من سوء فهم كلامه في بيان بقاء الانواع دون الاشخاص فانه قال كما قال ارسطو وغيره : ان الاشخاص توجد وتفنى وأما الانواع فهي باقية لا تزول : وهذا باب آخر لا يغاير بالمرة ما استنتجوا منه (وقد سبق الكلام فى بيان رأيه من وجه آخر (١) كما أخطأوا في قولهم عنه انه كان يعتقد بأن الله روح العالم يظهر في صوره والكل يرجع اليه بمعنى انه يفنى في ذاته ولا يبقى في العالم باق آخر . وهو يقرب من قولهم السابق . فان ابن رشد كان مسلما وكان يعرف ان الاسلام لا ينافي العلم وانما ينافي هذا

الضرب من الوهم ، الذي لم يسقط فيه احد الا من عثرة في طريق العلم أو الاسترسال مع الخيال . وكثير ممن سكروا بهذا الرأى أفاقوا منه . ولكن كتب ابن رشد التي بين أيدينا تبعد بنا عن نسبة هذا الرأي اليه كما سبق بيانه (١) ولكني لا أنكر نسبته لو نسب الى ابن سبعين وهو ممن أخذ عن تلامذة ابن رشد فان في كلامه مايدل على ذلك

ويقول فليسوف آخر : « ان العلوم التي تلقاها العرب عن اليونانيين وغيرهم وكانت ميتة بين دفات الدفاتر مقبورة بين جدران المكاتب أو مخزونة في بعض الرؤس كانها أحجار ثمينة في بعض الخزائن لاحظ للانسانية منها سوى النظر اليها — صارت عند العرب حياة الآداب ،وغذاء الارواح ، وروح المروة ، وقوام الصنعة ومهمازا للقوى البشرية يسوقها الى كمالها الذي أعدت له . وليس في الاوربيين من درس التاريخ وحكم العقل ثم ينكر ان الفضل — في اخراج أوربا من ظلمة الجهل الى ضياء العلم وفى تعليمها كيف تنظر وكيف تتفكر وفي معرفتها أن التجربة والمشاهدة هما الاصلان اللذان يبنى عليهما العلم — انما هو للمسلمين وآدابهم ومعارفهم التي حملوها اليهم وأدخلوها من أسبانيا وجنوب ايطاليا وفرنسا عليهم . وكان من حظ العلم العربي والادب المحمدي عند

(١) و (٢) قد سبق ذلك في المقالة الاولى التي ردبها الكاتب على الجامعة

مادخلا الى ايتاليا أن البابا كان غائباً لان كرسيه كان انتقل الى فرنسا في افنيون نحو سبعين سنة فدب العلم الى شمال ايطاليا واستقر به القرار هناك ، ان شوارع باريس لم تفرش بالحجارة الا في القرن الثاني عشر وقد رصت البلاط على نحو ما رصت به مدن اسبانيا» اهـ

ويقول آخر : « لا أدري كيف أعطانا الاسلام في مدة قرنين عددا من الفلكيين يطول سرد أفراده وان الكنيسة تسلطت على العالم المسيحي اثنى عشر قرنا في أوربا ولم تمنحنا فلكيا واحدا»

هذا النماء والزكاء العلمي لم يكن خاصا بطائفة دون طائفة بل كان الناس في التمكن من تناوله سواء ، وانما كان التفاضل بالجد والعمل ، والتفضل في ذلك كله لحلم الخلفاء واعمالهم وسماحة الدين ويسره وسهولته على أهله وأهل ذمته ، قال بعض فلاسفة الغربيين قولا يعرفه الحق وتثبته المشاهدة : « ان شعوب الارض لم ترقط فاتحا بلغ من الحلم هذا المبلغ (يريد فاتحي الاسلام على اختلافهم) ولا دينا بلغ في لينه ولطفه هذا الحد »

﴿ أخذ الخلفاء والامراء ﴾

(بيد العلم والعلماء)

ان الخلفاء الذين يقال عنهم انهم رؤساء دين وحكام سياسة معا كانوا هم بأنفسهم المتعلمين للعلوم الداعين الى تعلمها . كانوا العالمين العاملين . كان خليفة كالمأمون يضطهد أحيانا أعداء الفلسفة وقد عرف التاريخ كثيرين من أرباب الشهرة الذين قضوا في سجنه الشهور أو السنين لانهم كانوا يعادون الفلسفة ظنا منهم أن منها ما يعدو على الدين فيفسده هل رأيت في غير الاسلام رئيسا دينيا يضطهد أعداء العلم وجفاة الفلسفة ؟ لعلك لا تجده أبدا

كان أهل العلم والادب عامة يجدون من الاحترام عند الخلفاء والامراء والخاصة ما يليق بهم كيفما كانت حالهم وسأضرب المثل بالشيخ ابي العلاء المعري لشهرته بين الناس بما يشبه الزندقة يذكر علي بن يوسف القفطي أن صالح بن مرادس صاحب حلب خرج الى المعرة وقد عصى أهلها عليه فنازلها وشرع في حصارها ورماها بالمنجنيق فلما أحس أهلها بالغلب سعوا الى أبي العلاء بن سليمان وسألوه أن يخرج ويشفع فيهم فخرج ومعه قائد يقوده فاكرمه صالح واحترمه ثم قال : ألك حاجة ؟ قال : الامير ـ أطال الله ـ بقاءه كالسيف القاطع لان مسه وخشن حده وكالنهار البالغ قاظ وسطه وطاب برده « خذ العفو وامر بالمعروف وأعرض عن

الجاهلين » فقال له صالح قد وهبتها لك ثم قال انشدنا شيئا من شعرك انرويه فأنشده على البديهة أبياتا فيه فترحل صالح. فانظر كيف وهب الامير بلدا عصى أهله لفليسوف معروف بما هو عنه معروف ولو ذكرت مانال العلماء والفلاسفة عند الامراء والخلفاء لطال بي المقال أكثر مما طال وفيما سبق كفاية لمكتف

﴿ ازالة شبهتين ﴾

(وبيان حقيقة الاضطهاد)

قد يتوهم قوم ان الاضطهاد قد يظهر في مقت العامة وخلقهم ما يخلقون من المفتريات على أهل العلم والفكر الحر وهمس بعضهم في آذان بعض وتغامزهم على أهل الفضل ولمزهم إياهم بالالقاب بل واحتقارهم في بعض الاحيان وهذا النوع منه عند المسلمين بلا نكير. وهو خطأ ظاهر لان هذا النوع مما يكره أهل العلم لا تخلو منه أرض ولا تطهر منه بلاد مهما بلغ أهلها من الحرية ومهما بلغ ذوق العلم من نفوس أهلها فان القائمين على عقيدة الكاثوليك الى اليوم في أرض فرنسا نفسها يمقتون الفلاسفة الذين يظهرون بمعاداة الكنيسة ويكتبون مايوهن قواعدها وقد يختلق عليهم أحزاب الكاثوليك مالم يقولوه ويرون أن النظر في كتبهم لايجوز في شريعة

الدين ونحن لانرتاب في أن نحو هذا كان عند المسلمين أيام كانت سوق الملسفة رائجة عندهم ولـكنه ليس من الاضطهاد في شيء وإنما هي نفرة الانسان مما لا يعرف مع ترك صاحبـه وشأنه يمضي في سبيله الى حيث يشاء

يقول آخرون : ان التاريخ يروي لنا أن بعض أرباب الافـكار قدأخذه السيف لغلوه في فـكره فلم يترك له من الحرية ما يتمتع به الى منتهى ما يبلغ به وليس يصح أن ينكر ماصنع الخليفة المنصور وغيره بالزنادقة

وأقول : ان كثيراً من الغلو اذا انتشر بين العامة أفسد نظامها واضطرب أمنها كما كان من آراء الحلاج وأمثاله (١) فتضطر السياسة للدخول فى الامر لحفظ أمن العامة فتأخذ صاحب الفـكر لا لانه تفكر ولـكن لانه لم يرد أن يقصر حق الحرية على شخصه بل أراد أن يقيد غيره بما رآه من الحرية لنفسه مع أن غيره في غنى عما يراه هو حقا له وتخشى الفتنة اذا استمر مدعي الحرية في غلوائه فلهـذا يرى حفاظ النظام أن أمثال هؤلاء يجب أن ينقى منهم المجتمع صونا

---

(١) المنار — ذكر أمام الحرمين في كتابه (الشامل) فى اصول الدين انه كان بين الحلاج والجنابي رئيس القرامطة اتفاق سري على قلب الدولة وان ذلك هو السبب الحقيقي في قتل الحلاج

له عما يزعزع أركانه . ونحن نرى الفلسفة اليوم تضطهد الدين هذا الضرب من الاضطهاد . ألم تقض الحكومة الفرنسية على الراهبين والراهبات أن تكون جمعياتهم ومدارسهم تحت سيطرة الحكومة؟ وان لا ينشأ شيء منها الا بأذن من الحكومة ؟ ومن لم يخضع لذلك تنحل جمعيته وتقفل مدارسه بقوة السلاح ، وقد ينفى من البلاد كما نفي كثيرون في سنين سابقة ؟ ولكن هل يسمى هذا اضطهادا؟ كلا ، انما الاضطهاد حق الاضطهاد هو اضطهاد محكمة التفتيش واضطهاد رؤساء الاصلاح بعدها في أول نشأتهم

ماذا يقول القائلون ؟ ان التعليم عند المسلمين كان غريبا أمره، يكاد يكون خفيا سره ، مسجد أو مدرسة تابعة لمسجد يجلس فيها للتدريس الفقيه والمتكلم والمحدث والنحوي والمتأدب والفيلسوف والفلكي والمهندس ! ينتقل الطالب من بين يدي الفقيه ليجلس بين يدي الفيلسوف، ومن مجلس الحديث الى مجلس الادب، واذا وقعت مذاكرة بينهم في مسألة من المسائل أخذت الحرية مأخذها في الاقناع والالزام، وسقطت قيمة الغلو في التعبير وأخذ التسامح بينهم مأخذه . كان عمرو بن عبيد رئيس المعتزلة وأشدهم صلابة في أصول مذهبه ومع ذلك هو من مشايخ الامام البخاري صاحب الصحيح، وكانت له منزلة عند المنصور تعلو كل ذي منزلة عنده حتى قال له يوما وهو خارج من بين يديه « رميت لكل الناس حبا فلقطوا

الا إياك يا عمرو بن عبيد » فانظر كيف كان لامام من أئمة السنة أن يصل سنده في الحديث برئيس من رؤساء المعتزلة ولا يرى في ذلك بأسا ؟

اذا عد عاد بعض رجال العلم الذين أخذتهم القسوة في الاسلام وقتلتهم حماقة الملوك باغراء الفقهاء وأهل الغلو في الدين فما عليه الا أن ينظر في أحوالهم فيقف لاول وهلة على أن الذي اثار اولئك عليهم ليس مجرد العصبية للدين وان ليست الغيرة عليه هى الباعث لهم على الوشاية بهم وطلب تنكيلهم . وإنما تجد الحسد هو العامل الاول في ذلك كله والدين آلة له . ولهذا لا ترى مثل ذلك الاذى يقع الا على قاضي قضاة كابن رشد (ورجوع الحاكم الى العفو عنه وإنزاله منزلته دليل على ذلك) أو وزير أو جليس خليفة أو سلطان أو ذي نفوذ عظيم بين العامة . وهذا كما يقع من الفقهاء مثلا لايذاء الفلاسفة يقع من الفقهاء بعضهم مع بعض لاهلاك بعضهم بعضا كما يشهد به العيان، ويحكي لنا التاريخ. فليس هذا كذلك معدودا من معنى اضطهاد الدين للفلسفة لان التحاسد أكثر ما يقع بين من لا دين لهم على الحقيقة وان لبسوا لباسه . وإنما ذلك الاضطهاد هو الذي يحمل عليه محض الاختلاف في العقيدة أو ظن المخالفة للدين في شيء من العلم أو العمل لضيق الدين عن ان يسع المخالف بجانبه ، وهذا لم يقع في الاسلام . اللهم الا أن يكون حادث لم يصل الينا

هذه طبيعة الدين الاسلامي عرضت عليك في أهم عناصرها ومقومات مزاجها . وهذا كان أثرها في العالم الشرقي والغربي . وهذه سعة فضل الدين وقوته على احتمال مخالفيه وتيسيره لاولئك المخالفين أن يحتموا به متى رضوا بأن يستظلوا بظله . هل في هذا خفاء على ناظر ، وهل يرضى لبيب لنفسه أن ينكر الضوء الباهر ، أفلا يبسم الاسلام عجباً وهو في أشد الكرب لعقوق أبنائه ، من أديب لم يكن يعده من أعدائه ان لم يحسبه في أحبائه ، عند مايراه يسدد سهمه اليه ، ويجور كما يجور الجائرون في حكمه عليه ، ؟ ؟

﴿ الاسلام اليوم ﴾

﴿ أو الاحتجاج بالمسلمين على الاسلام ﴾

(المقال الرابع لذلك الامام الحكيم)

ربما يسأل سائل فيقول : سلمنا أن طبيعة الاسلام تأبى اضطهاد العلم بمعناه الحقيقي وانه لم يقع من المسلمين الاولين تعذيب ولا احراق ولا شنق لحملة العلوم الكونية ، ومقومي العقول البشرية ، لكن أليس العلماء من المسلمين اليوم أعداء

العلوم العقلية ، والفنون العصرية ، أو ليس الناس تبعا لهم ؟ أفلا يكون للاديب عذره فيما يراه و يسمعه حوله ؟ ألم يسمع بأن رجلا في بلاد اسلامية غير البلاد المصرية (١) كتب مقالا في الاجتهاد والتقليد وذهب فيه الى ماذهب اليه أئمة المسلمين كافة، ومقالا بين فيه رأيه في مذهب الصوفية ، وقال انه ليس مما انتفع به الاسلام بل قد يكون مما رزىء به أو ما يقرب من هذا — وهو قول قال به جمهور أهل السنة من قبله — فلما طبع مقاله في مصر تحت اسمه هاج عليه حملة العاثم ، وسكنة الاثواب العباعب ، وقالوا : انه مرق من الدين ، أو جاء بالافك المبين ، ثم رفع أمره الى الوالي فقبض عليه وألقاه في السجن ؟ فرفع شكواه الى عاصمة الملك وسأل السلطان أن يأمر بنقله الى العاصمة ليثبت براءته مما اختلق عليه ، بين يدي عادل لا يجور ، ومهيمن على الحق لا يحيف ، الخ ما يقال في الشكوى . فأجيب طلبه لكن لم ينفعه ذلك كله فقد صدر الامر هناك أيضاً بسجنه ولم يعف عنه الا بعد أشهر ، مع انه لم يقل الا مايتفق مع أصول

(١) هذا الرجل هو السيد عبد الحميد الزهراوي الحمصي الشهير رحمه الله ومقالاه في الفقه والتصوف نشرا في المنار وطبعا على حدتهما وقد وشى به بعض حساده في دمشق الى والي الشام فاعتقله الوالي وكان السبب الحقيقي لاعتقاله مقالة له في الخلافة نشرت في المقطم (راجع ترجمته في المنار ص ١٩٦ م ١٩

الدين، ولا ينكره القارىء والكاتب ، ولا الآكل والشارب

ألم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسي (والد السنوسي صاحب الجغبوب) كتب كتابا في أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول المالكية وجاء في كتاب له ما يدل على دعواه أنه ممن يفهم الاحكام من الكتاب والسنة مباشرة وقد يرى ما يخالف رأي مجتهد أو مجتهدين . فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية (رحمه الله تعالى) وكان المقدم في علماء الجامع الازهر الشريف(١) فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسي ليطعنه بها لانه خرق حرمة الدين ، واتبع سبيلا غير سبيل المؤمنين ، وربما كان يجترىء الاستاذ على طعن الشيخ السنوسي بالحربة لو لاقاه وإنما الذي خلص السنوسي من الطعنة ، ونجى الشيخ المرحوم من سوء المغبة ، وارتكاب الجريمة باسم الشريعة، هو مفارقة السنوسي للقاهرة قبل أن يلاقيه الاستاذ المالكي .

هل غاب عن الاذهان ما كان ينشر في الجرائد من نحو ثلاث سنين بأقلام بعض علماء الجامع الازهر من المقالات الطويلة الاذيال الواسعة الاردان في استهجان ادخال علم تقويم البلدان (الجغرافية) بين العلوم التي يتلقاها طلبة الجامع الازهر ؟ وكان كتاب تلك

(١) هو الشيخ عليش الذي كان ينكر على السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده أيضا

المقالات يعرضون بمن أشار بادخال هذا العلم وغيره بين تلك العلوم وانه إنما يريد الغض من علوم الدين (١) أم لم تنشر في العام الماضي فصول بأقلام بعضهم تشير الى الطعن في عقيدة البعض الآخر وإرادة التشهير به مع انه لم يجهر بمنكر ولم يقل قولا يبعد من الكتاب والسنة ؟

ألم تحمل الينا الرواة ما عند علماء الافغان والهند والعجم من شدة التمسك بالقديم ، والحرص على ماورثوا عن آبائهم الاقربين وإقامة الحرب على كل من حاول أن يزحزحهم أصبعا عما كان عليه سلفهم ، وان كان في البقاء عليه تلفهم ، وما عليه الحال اليوم في حكومة المغرب من الغلو في التعصب ، والمعاقبة بقطع بعض الاعضاء فى شرب الدخان ، أو بالقتل في كلمة ينكرها السامعون ، وان أجمع عليها المسلمون الآخرون ،

ثم ألا يتخيل المتأمل انه يسمع من جوف المستقبل صخبا ولجبا ، وضوضاء وجلبة ، وهيعات مضطربة ، اذا قيل انه ينبغي لطلبة الازهر أن يدرسوا طرفا من مبادىء الطبيعة أو يحصلوا جملة من التاريخ الطبيعي ؟ ألا تقوم قيامة المتقين ، ألا يصيحون أجمعين أكتعين أبتعين ، : هذا عدوان على الدين ، هذا توهين لعقده المتين ،

---

(١) يعني الاستاذ بهذا نفسه فهو الذي اشار بتعليم هذه العلوم

هذا تغرير بأهله المساكين ، ولا يزالون يشيدون بهذا الى أن لايبقى شيء عرف له اسم في اللغة الا ألصقوه بهذه البدعة في زعمهم؟

هل هذه الحال جديدة على المسلمين حتى يقال إنها عارض عرض عليهم ، او مرض من الامراض الوافدة اليهم ؟ لا يسهل على من يمرض أحوال المسلمين تحت نظره من قرون متعددة أن يظن ان هذه الحال من العلل الطارئة على امزجة الامم خصوصا عند مايجد الوحدة في الصفات ، والشمول في جميع الاعتبارات ، فلو أخذ مسلما من شاطىء الاطلانطيقي وآخر من تحت جدار الصين لوجد كلمة واحد تخرج من افواههما وهي : (إنا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مهتدون) وكلهم اعداء لكل مخالف لما هم عليه وإن نطق به الكتاب واجتمعت عليه الآثار

اللهم الا فئة زعمت أنها نفضت غبار التقليد وأزالت الحجب التي كانت تحول بينها وبين النظر في آيات القرآن ومتون الاحاديث لتفهم أحكام الله منها ولكن هذه الفئة اضيق عطنا وأحرج صدرا من المقلدين وان أنكرت كثيرا من البدع ونحت عن الدين كثيرا مما أضيف اليه وليس منه فانها ترى وجوب الاخذ بما يفهم من لفظ الوارد والتقيد به بدون التفات الى ماتقتضيه الاصول التي قام عليها الدين ، واليها كانت الدعوة ، ولاجلها منحت النبوة ، فلم يكونوا للعلم

أولياء ، ولا للمدنية السليمة أحباء (١)

هل يمكن أن ينكر أحد جمود الفقهاء ووقوفهم عند عبارات المصنفين على تباينها واختلافها واضطراب الآراء في فهمها؟ واذا عرضت حادثة من الحوادث ولم يكن لمصنف معروف رأي فيها احجموا عن ابداء الرأي واجتهدوا في تحويلها عن حقيقتها الى أن تتفق مع قول معروف في كتاب من الكتب؟ حتى لقد جاء طالب علم من بلد من بلاد الدولة العثمانية وأراد الالتحاق باحد الاروقة في الجامع الازهر فوقع الشك هل بلده مما لاهله استحقاق في ذلك الرواق على حسب نص الواقف . فقال قائل لشيخ الرواق : ان كتب تقويم البلدان تشهد بأن البلد داخل في شرط الواقف . فقال : إنني لا أقنع بما في تلك الكتب وإنما الذى يصح أن آخذ به هو أن يكون فقيه (ممن مات) قال ان هذا البلد من قطر كذا وهو الذي وقف الواقف على أهله . واذا قيل لاحدهم : ان الائمة أنفسهم لم يعينوا مواقع البلدان ولم يضعوا لنا جدولا لبيان ما يحويه كل قطر و بيان الحدود

(١) يعني بهذة الفئة أهل الحديث ومن يسمون الوهابية فقد كان يحمد منهم ترك البدع . والاهتداء بالسنن . وتقديم الاثر . على آراء البشر . وينكر عليهم ضيق الوطن . دون ماارشدت اليه النصوص من علوم الاكوان . ومقدمات المدنية والعمران . التي تعتز بها الامة . وتعلو كلمة الملة

التي ينتهي اليها و إن أصول ديننا تسمح لنا بأن نأخذ بأقوال العلماء في هذه الفنون (وهم منا) وبتواتر الاخبار وما أشبه ذلك من البديهيات قال: انما أريد نصا فقهيا ، لا دليلا عقليا ،

واذا قيل لهم: اختلت الشؤون ، وفسدت الملكات والظنون ، وساءت أعمال الناس ، وضلت عقائدهم ، وخوت عباداتهم من روح الاخلاص ، فوثب بعضهم على بعض الشر ، وغالت اكثرهم أغوال الفقر ، فتضعضعت القوة ، واخترق السياج ، وضاعت البيضة وانقلبت العزة ذلة ، والهداية ضلة ، وساكنتكم الحاجة ، وألفتكم الضرورة ولا تزالون تألمون مما نزل بكم و بالناس ، فهلا نبهكم ذلك الى البحث في أسباب ما كان سلفكم عليه ، ثم عالى ماصرتم وصار الناس اليه ؟ قالوا : ذلك ليس الينا ، ولا فرضه الله علينا ، وانما هو للحكام ينظرون فيه ، ويبحثون عن وسائل تلافيه ، فان لم يفعلوا — ولن يفعلوا — فذلك لانه آخر الزمان وقد ورد في الاخبار مايدل على أنه كائن لامحالة وان الاسلام لابد أن يرفع من الارض ولا تقوم القيامة الا على لكع بن لكع . واحتجوا على اليأس والقنوط بآيات وأحاديث وآثار تقطع الامل ، ولا تدع في نفس حركة الى عمل؟؟

﴿ رأي رينان في الاسلام ﴾

هذا الجمود — الذي لو أردنا بيان ما أمتد اليه من طيات الافكار، وثنيات الوجدان، لكتبنا فيه كتابا — هو الذي حمل الموسيو رنان الفليسوف الفرنسي المشهور ان يقول في عرض كلام له في تساهل المذاهب الدينية مع العلم نقلته عنه الجامعة : « على أنني أخشى أن يثبت الدين الاسلامي وحده في وجه هذا التسامح العام في العقائد، ولكنني أعرف أن في نفوس بعض الرجال المتمسكين بآداب الدين الاسلامي القديمة وفى بضعة من رجال الاستانة وبلاد الفرس جراثيم جيدة تدل على فكر واسع، وعقل ميال الى المسالمة، الا أنني أخشى ان تختنق هذه الجراثيم بتعصب بعض الفقهاء، فاذا اختنقت قضي على الدين الاسلامى . ذلك انه من الثابت الآن امران — الاول أن التمدن الحديث لا يريد إماتة الاديان بالمرة لانها تصلح أن تكون وسيلة اليه . والثاني أنه لا يطيق أن تكون الاديان عثرة في سبيله . فعلى هذه الاديان أن تسالم وتلين، والا كان موتها ضربة لازب » اهـ كلام رنان بتصرف لفظي قليل

فمن أين يكون هذا الجمود العام الذي سمح للطاعنين أن يحكموا على الاسلام بأنه عثرة في طريق المسلمين يسقط بهم دون أن ينالوا

فلاحا في سعيهم ، أو نجاحا في أعمالهم ؟ من أين يكون هذا الجمود ان لم يكن من طبيعة الدين ؟ ومن أين يكون ما سردناه من الحوادث إن لم يكن ناشئا من أصول الدين ؟ فان لم تسلم بأن هذا اضطهاد، وان الاضطهاد من لوازم الدين الاسلامي فعليك ان تسلم بأنه عداوة للعلم أو اشمئزاز منه . أو استهجان له أو احتقار لشأنه . وأحد هذه الامور كاف اذا عم بين المسلمين في أن ينفر بهم عن كل مجد . وان يحرمهم كل نفع . وأن يحقق فيهم ماتنبأ به رنان وغيره فما قولك في هذا ؟ ؟

﴿ الجواب ﴾

أقول هذا كلام فيه شية من الحق ولمعة من الصدق، أما ما نسمعه حولنا من سجن من قال بقول السلف فليس الحامل عليه التمسك بالدين فان حملة العمائم إنما حركهم الحسد لا الغيرة. وأما صدور الامر بالسجن فهو من مقتضيات السياسة والخوف من خروج فكر واحد من حبس التقليد فتنتشر عداوه فيتنبه غافل آخر ويتبعه ثالث ثم ربما تسري العدوى من الدين الى غير الدين — الى آخر مايكون من حرية الفكر (يعوذون بالله منها) . فان شئت ان تقول ان السياسة تضطهد الفكر أو الدين أو العلم فانا معك من الشاهدين. أعوذ بالله من السياسة، ومن لفظ السياسة، ومن معنى السياسة ومن كل حرف

يلفظ من كلمة السياسة ومن كل خيال يخطر ببالي من السياسة ومن كل أرض تذكر فيها السياسة، ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يجن أو يعقل في السياسة ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس يدلك على ان العقوبة سياسية أن الرجل كان يقول بقول السلف من أهل الدين. لا تقل ان هذه السياسة من الدين فاني أشهد الله ورسوله وملائكته وسلفنا أجمعين، ان هذه السياسة من أبعد الامور عن الدين كأنها الشجرة التي تخرج في أصل الجحيم (طلعها كأنه رؤوس الشياطين * فانهم لآكلون منها فمالئون منها البطون * ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم * ثم ان مرجعهم لالى الجحيم * انهم ألفوا آباءهم ضالين * فهم على آثارهم يهرعون)

﴿ جمود المسلمين وأسبابه ﴾

وأما ماوصفت بعد ذلك من الجمود فهو مما لا يصح ان ينسب الى الاسلام وقد رأيت صورة الاسلام في صفائها ونصوع بياضها ليس فيها مايصح ان يكون أصلا يرجع اليه شيء مما ذكرت ولا مما تنبأ بسوء عاقبته (رنان) وغيره . وانما هي علة عرضت على المسلمين عند مادخل على قلوبهم عقائد اخرى ساكنت عقيدة الاسلام في أفئدتهم وكان السبب في تمكنها من نفوسهم وإطفائها لنور الاسلام من عقولهم هو السياسة كذلك هو تلك الشجرة الملعونة في القرآن

عبادة الهوى وإتباع خطوات الشياطين هو السياسة

لم أر كالاسلام دينا حفظ أصله ، وخلط فيه أهله ، ولا مثله سلطانا تفرق عنه جيده ، وخفر عهده ، وكفر وعيده ووعده ، وخفي على الغافلين قصده ، وإن وضح للناظرين رشده ، أكل الزمان أهله الاولين ، وأدال منهم خشارة من الآخرين ، لاهم فهموه فأقاموه ولا هم رحموه فتركوه ، سواسية من الناس اتصلوا به ، ووصلوا نسبهم بسببه وقالوا نحن أهله وعشيرته ، وحماته وعصبته وهم ليسوا منه في شيء إلا كما يكون الجهل من العلم . والطيش من الحلم . وأفن الرأي من صحة الحكم

أنظر كيف صارت مزية من مزايا الاسلام سببا فيما صار اليه اهله : كان الاسلام دينا عربياً ثم لحقه العلم فصار علما عربيا بعد ان كان يونانيا ثم أخطأ خليفة فى السياسة فاتخذ من سعة الاسلام سبيلا الى ما كان يظنه خيرا له . ظن أن الجيش العربي قد يكون عونا لخليفة علوي لان العلويين كانوا ألصق ببيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم . فأراد أن يتخذ له جيشاً أجنبيا من الترك والديلم وغيرهم من لامم التي ظن أنه يستعبدها بسلطانه . و يصطنعها باحسانه . فلا تساعد الخارج عليه ولا تعين طالب مكانه من الملك . وفي سعة أحكام الاسلام وسهولته ما يبيح له ذلك . هنالك استعجم الاسلام وانقلب عجميا

foreign

خليفة عباسي أراد أن يصنع لنفسه ولخلفه، وبئس ما صنع بأمته ودينه — أكثر من ذلك الجند الاجنبي وأقام عليه الرؤساء منه فلم تكن الا عشية أو ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء واستبدوا بالسلطان دونهم وصارت الدولة في قبضتهم . ولم يكن لهم ذلك العقل الذي راضه الاسلام والقلب الذي هذبه الدين بل جاؤا الى الاسلام بخشونة الجهل يحملون ألوية الظلم . لبسوا الاسلام على أبدانهم ولم ينفذ منه شيء الى وجدانهم وكثير منهم كان يحمل إلهه معه يعبده في خلوته ويصلي مع الجماعات لتمكين سلطته ثم عدا على الاسلام آخرون كالتتار وغيرهم ومنهم من تولى أمره

أي عدو لهؤلاء أشد من العلم الذي يعرف الناس منزلتهم ويكشف لهم قبح سيرهم ؟ فمالوا على العلم وصديقه الاسلام ميلتهم أما العلم فلم يحفلوا بأهله وقبضوا عنه يد المعونة وحملوا كثيرا من أعوانهم أن يندرجوا في سلك العلماء وأن يتسربلوا بسرابيله ليعدوا من قبيله ثم يضعوا للعامة في الدين ما يبغض اليهم العلم ويبعد بنفوسهم عن طلبه . ودخلوا عليهم وهم أغرار من باب التقوى وحماية الدين زعموا الدين ناقصا ليكملوه أو مريضا ليعلاوه أو متداعيا ليدعموه أو يكاد أن ينقض ليقيموه

نظروا الى ما كانوا عليه من فخفخة الوثنية وفي عادات من كان حولهم من الامم النصرانية فاستعاروا من ذلك للاسلام

ما هو براء منه لكنهم نجحوا فى اقناع العامة بأن في ذلك تعظيم شعائره وتفخيم أوامره والغوغاء عون الناشم وهم يد الظالم فخلقوا لنا هذه الاحتفالات وتلك الاجتماعات وسنوا لنا من عبادة الاولياء والعلماء والمتشبهين بهم مافرق الجماعة وأركس الناس في الضلالة وقرروا أن المتأخر ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدم وجعلوا ذلك عقيدة حتى يقف الفكر وتجمد العقول . ثم بثوا أعوانهم في أطراف الممالك الاسلامية ينشرون من القصص والاخبار والآراء مايقنع العامة بأنه لا نظر لهم في الشؤون العامة . وأن كل ماهو من أمور الجماعة والدولة فهو مما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم ومن دخل فى شيء من ذلك من غيرهم فهو متعرض لما لا يعنيه . وأن ما يظهر من فساد الاعمال واختلال الاحوال ليس من صنع الحكام وانما هو تحقيق لما ورد في الاخبار من أحوال آخر الزمان وأنه لاحيلة في اصلاح حال ولا مآل . وأن الاسلم تفويض ذلك الى الله وما على المسلم الا أن يقتصر على خاصة نفسه. ووجدوا في ظواهر الالفاظ لبعض الاحاديث مايعينهم على ذلك وفي الموضوعات والضعاف ما شد أزرهم في بث هذه الاوهام. وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضلين وتعاون ولاة الشر على مساعدتهم في جميع الاطراف واتخذوا من عقيدة القدر مثبطا للعزائم وغلا للايدي عن العمل . والعامل الاقوى في حمل النفوس على قبول هذه الخرافات

انما هو السذاجة وضعف البصيرة في الدين وموافقة الهوى . أمور اذا اجتمعت أهلكت. فاستتر الحق تحت ظلام الباطل ورسخ في نفوس الناس من العقائد ما يضارب أصول دينهم و يباينها على خط مستقيم كما يقال

هذه السياسة — سياسة الظلمة وأهل الاثرة — هي التي روجت ما ادخل على الدين مما لا يعرفه وسلبت من المسلم أملا كان يخترق به أطباق السموات وأخلدت به الى يأس يجاور به العجماوات فجل ماتراه الآن مما تسميه اسلاما فهو ليس باسلام وانما حفظ من أعمال الاسلام صورة الصلاة والصوم والحج ومن الاقوال قليلا منها حرفت عن معانيها و وصل الناس بما عرض على دينهم من البدع والخرافات الى الجمود الذى ذكرته وعدوه دينا . نعوذ بالله منهم ومما يفترون على الله ودينه فكل ما يعاب الآن على المسلمين ليس من الاسلام وانما هو شيء آخر سموه اسلاما والقرآن شاهد صادق (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) يشهد بأنهم كاذبون وانهم عنه لاهون وعما جاء به معرضون وسنوفي لك الكلام في مفاسد هذا الجمود ونثبت انه علة لا بد أن تزول

﴿ مفاسد هذا الجمود و نتائجه ﴾

طال أمد هذا الجمود لاستمرار عمل العاملين في المحافظة عليه وولع شهواتهم بالدفاع عنه وقد حدثت عنه مفاسد يطول بيانها وانما يحسن اجمال القول فيها

كان الدين هو الذي ينطلق بالعقل فى سعة العلم و يسيح به في الارض و يصعد به الى اطباق السماء ليقف به على أثر من آثار الله أو يكشف به سرا من أسراره في خليقته أو يستنبط حكما من أحكام شريعته فكانت جميع الفنون مسارح للعقول تقتطف من ثمارها ما تشاء وتبلغ من التمتع بها ما تريده. فلما وقف الدين وقعد طلاب اليقين وقف العلم وسكنت ريحه ولم يكن ذلك دفعة واحدة ولكنه سار سير التدريج

جناية الجمود على اللغة

أول جناية لهذا الجمود كانت على اللغة العربية وأساليبها وآدابها فان القوم كانوا يعنون بها لحاجة دينهم اليها — أريد حاجتهم في فهم كتابهم الى معرفة دقائق أساليبها وما تشير اليه هيئة تراكيبها وكانوا يجدون أنهم لن يبلغوا ذلك حتى يكونوا عربا بملكاتهم يساوون من كانوا عربا بسلائقهم فلما لم يبق للمتأخر الا الاخذ بما قال المتقدم

قصر المحصلون تحصيلهم على فهم كلام من قبلهم وا كتفوا باخذ حكم الله منه بدون أن يرجعوا الى دليله ولو نظروا في الدليل فرأوه غير دال له بل دالا لخصمه بأن كان عرض له في فهمه مايعرض للبشر الذين لم يقرر الدين عصمتهم لخطأوا نظرهم وأعمو أبصارهم وقالوا : نعوذ بالله أن تذهب عقولنا الى غير ما ذهب اليه متقدمنا وأرغموا عقلهم على لوقفة فيصيبه الشلل من تلك الناحية . فأي حاجة له بعد ذلك الى اللغة العربية نفسها وقد يكفيه منها ما يفهم به أسلوب كلام المتقدم وهو ليس من اولئك العرب الذين كان ينظر الاولون في كلامهم .

وبكذا كل متأخر يقصر فهمه على النظر في كلام من يليه هو غير مبال بسلفه الاول بل ولا بما كان يحف بالقول من أحوال الزمان فهو لا ينظر الا اللفظ وما يعطيه فتسقط منزلته في تحصيل اللغة بمقدار بعده عن أهلها حتى وصل حال الناس الى مانراهم عليه اليوم : جعلوا دروس اللغة لفهم عبارة بعض المؤلفين في النحو وفنون البلاغة وان لم يصلوا منها الى غاية في فهم ماوراءها فدرست علوم الاولين وبادت صناعاتهم ، بل فقدت كتب السلف الاولين رضي الله عنهم ، وأصبح الباحث عن كتاب المدونة لمالك رحمه الله تعالى أو كتاب الام للشافعي رحمه الله تعالى أو بعض كتب الامهات في فقه الحنفية كطالب المصحف في بيت الزنديق . تجد جزءا من

الكتاب في قطر وجزءه الآخر في قطر آخر فاذا اجتمعت لك أجزاء الكتاب وجدت ماعرض عليها من مسخ النساخ حائلا بينك وبين الاستفادة منها

هذا كله من أثر الجمود وسوء الظن بالله وتوهم أن أبواب فضل الله قد أغلقت في وجوه المتأخرين ، ليرفع بذلك منازل المتقدمين وعدم الاعتبار بما ورد في الاخبار من أن المبلغ ربما كان أوعى من السامع (١) وان هذه الامة كالمطر لا يدرى أوله خير أو آخره (٢) وقلة الالتفات الى أن ذلك قد أضاع آثار المتقدمين أنفسهم ولا حول ولا قوة الا بالله.

لاريب أن القارىء يحيط بمقدار ضرر هذه الجناية على اللغة . يكفيه من ذلك أنه اذا تكلم بلغته لغة دينه وكتابه وقومه، لا يجد من يفهم ما يقول، وأي ضرر أعظم من عجز القائل عن ان يصل بمعناه الى العقول ؟

جناية الجمود على النظام والاجتماع :

وأعظم من هذه الجناية جناية التفريق وتمزيق نظام الامة وايقاعها فيما وقع فيه من سبقها من الاختلاف وتفرق المذاهب والشيع في الدين . كان اختلاف السلف في الفتيا يرجع الى اختلاف

(١) المنار. يشير الى حديث ابن مسعود عند الترمذي وابن ماجه وهو : سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول « نضر الله امرأ سمع منى شيئا فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى له من سامع » ورواه غيرهما عن غيره (٢) يشير الى حديث انس عند الترمذي وهو : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل امتي مثل المطر لا يدري اوله خير أم آخره» ورواه غيره

أفهام الافراد وكل يرجع الى أصل واحد لا يختلفون فيه وهو كتاب الله وما صح من السنة فلا مذهب ولا شيعة ولا عصبية تقاوم عصبية ولو عرف بعضهم صحة ما يقول الآخر لاسرع الى موافقته كما صرح به جميعهم . ثم جاء أنصار الجمود فقالوا: يولد مولود في بيت رجل من مذهب امام فلا يجوز له أن ينتقل من مذهب أبيه الى مذهب امام آخر . واذا سألتهم قالوا : «وكلهم من رسول الله ملتمس» لكنه قول باللسان ، لا أصل له في الجنان ، ثم كانت حروب جدال بين أئمة كل مذهب لو صرفت آلاتها وقواها في تبيين أصول الدين ونشر آدابه وعقائده الصحيحة بين العامة لكنا اليوم في شأن غير ما نحن فيه . يجد المطلع على كتب المختلفين من مطاعن بعضهم في بعض ما لا يسمح به أصل من أصول الدين الذي ينتسبون اليه . يضلل بعضهم بعضاً ويرمي بعضهم بعضاً بالبعد عن الدين وما المطعون فيه بأبعد عن الدين من الطاعن ولكنه الجمود قد يؤدي الى الجحود

كان الاختلاف في العقائد على نحو الاختلاف في الفتيا تخالف أشخاص في النظر والرأي وكان كل فريق يأخذ عن الآخر ولا يبالي بمخالفته له في رأيه مسجدهم واحد وامامهم واحد وخطيبهم واحد فلما جاء دور الجمود — دور السياسة — أخذ المتخالفون في التنطع وأخذت الصلات تتقطع وامتازت فرق وتألفت شيع كل ذلك

على خلاف ما يدعو اليه الدين. وقد بذل قوم وسعهم في تمييز الفرق تمييزا حقيقيا فما استطاعوا وانما هو تمييز وهمي وخلف في أكثر المسائل لفظي وانما هي اشهوات وضروب السياسات. أشعلت نيران الحرب بين المنتسبين الى تلك الشيع حتى آل الامر الى هذه الفرقة التي يظن الناظر فيها أنها لا دواء لها

قال قائل(١) من عدة سنين: إنه ينبغي أن يعين القضاة في مصر من أهل المذاهب الاربعة لان أصول هذه المذاهب متقاربة وعبارات كتبها مما يسهل على الناظر فيها أن يفهمها وقال: ان الضرورة قاضية بان يأخذ في الاحكام ببعض أقوال من مذهب مالك أو مذهب الشافعي تيسيرا على الناس ودفعا للضرر والفساد: فقام كثير من المتورعين، يحوقلون ويندبون حظ الدين، كأن الطالب يطالب شيئا ليس من الدين مع انه لم يطالب الا الدين، ولم يأت الا بما يوافق الدين، وبما كان عليه العمل في اقطار العالم الى ما قبل عدة سنين، فأين قول هؤلاء «وكلوهم من رسول الله ملتمس»؟ لكن هو جمود المتأخر على رأي من سبقه مباشرة وقصر نظره عليه دون

(١) القائل هو الامام الكاتب وله فيه اقتراح رسمي في تقريره الذي وضعه لاصلاح المحاكم الشرعية وبينا مكانته وادلته في مقدمة ذلك التقرير

التطلع الى ماوراءه. أو هي السياسة تحل ما تشاء وتحرم ما تشاء ، وتصحح ما تشاء وتعطل ما تشاء ، والناس منقادون اليها بازمة القوة أو الاهواء

جناية الجمود على الشريعة وأهلها

هذا الجمود في أحكام الشريعة جر الى عسر حمل الناس على اهمالها : كانت الشريعه الاسلامية أيام كان الاسلام اسلاما سمحة تسع العالم بأسره وهي اليوم تضيق عن أهلها حتى يضطروا الى أن يتناولوا غيرها وان يلتمسوا حماية حقوقهم فيما لايرتقي اليها وأصبح الاتقياء من حملتها يتخاصمون الى سواها . صعب تناول الشريعة على الناس حتى رضوا بجهلها عجزا عن الوصول الى علمها فلا ترى العارف بها من الناس الا قليلا لا يعد شيئا اذا نسب لى من لا يعرفها . وهل يتصور من جاهل بشريعة أن يعمل باحكامها؟ فوقع أغلب العامة في مخالفة شريعتهم بل سقط احترامها من أنفسهم لانهم لا يستطيعون أن يطبقوا أعمالهم بمقتضى نصوصها . وأول مانع لهم ضيق الطاقة عن فهمها لصعوبة العبارات وكثرة الاختلاف . سألت يوما أحد المدرسين في بعض المذاهب : هل تبيع وتشتري وتصرف النقود على مقتضى ماتجد في كتب مذهبك فأجاب إن تلك الاحكام قلما تخطر بباله عند المعاملة بالفعل وانما

يفعل ما يفعل الناس . هكذا فعل الجمود بأهله ولو أرادوا أن تكون للشريعة حياة يحيا بها الناس لفعلوا ولسهل عليهم وعلى الناس أن يكونوا بها أحياء

تعلم ما وصل اليه الناس من فساد الاخلاق والانحراف عن حدود الشريعة . لو سألت عن سببه في القرى وصغار المدن لوجدته أحد أمرين : اما فقد العارف بالشريعة والدين وسقوط القرية أو المدينة في جاهلية جهلاء يرجع بعض أهلها الى بعض في معرفة الحلال والحرام وليس المسئول بأعلم من السائل وكلهم جاهلون وإما عجز العارف عن تفهيم من يسأله لاعتقال لسانه عن حسن التعبير بطريقة تفهمها العامة فهو اذا سئل يقرأ كتابا أو يسرد عبارة يصعب على السامع فهمها وعلى المتكلم افهامها . وذلك للحرج الذي وضع فيه نفسه فلا يستطيع التصرف فيما يسمع ولا فيما يعلم . فاذا قلت للعارف: تعلم من وسائل التعبير ما يقدرك على مخاطبة الطبقات المختلفة من الناس حتى تنفع بعلمك واعل بنفسك الى أن تفهم الغرض من قول إمامك فتجد لاصله انطباقا على هذه الحادثة مثلا وان لم يأت ذكرها بنفسها في قوله أو قول من جاء بعده من أتباعه قال : سبحان الله ! هل فعل ذلك أحد من المشايخ ؟ يريد أن لايأتي شيئا الا ما أتى به شيخه الذي أخذ عنه يدا بيد ولو أبعد بنظره لوجد قدماء المشايخ قد فعلوه وبالغوا فيه حتى خالفوا من

أخذوا عنه في بعض رأيه (١). ثم اذا حاجبته في ذلك لم يبعد من رأيه أن يعدك زنديقا وأنك تدعوه الى الخروج من دينه ولا يدري المسكين أنه بذلك يخالف نصوص دينه وأنه يتهيأ للخروج منه نعوذ بالله تعالى

كان كلام بيني و بين أحد المدرسين في أخذ الطلبة بالنصيحة وتذكيرهم بفضائل الاخلاق وصالح الاعمال خصوصا عند إلقاء الدروس الفقهية ودروس الحديث والتوحيد فقال لي : انه لا فائدة في ذلك قطعا وهو تعب في غير طائل . فقلت له : ذلك حق عليك أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وليس عليك أن يأتمر المأمور ولا أن ينتهي المنهي : فقال : اذا تحققت استحالة المنفعة كان الامر والنهي لغوا . فانظر كيف اعتقد استحالة الانتفاع بنصحه لبلوغ الفساد من النفوس غايته كما يزعم ولم ينظر في الوسيلة لاقلاع هذا الفساد مع أن الدين يدعوه الى ذلك وهو يعمل كل يوم عمله لتعليم من لا سبيل الى اصلاحه. هذا كله لانه لم ير نفسه أهلا لان يتخذ وسيلة لم يتخذها من أخذ عنه أو لم يرشده اليها من تعلم هو بين يديه ولم يتذكر عند ذلك شيئا من الاوامر الالهية التي وردت في

(١) تراهم يقولون في الكلام على آية أو حديث انه حجة على اصحابنا وتجد مثل هذا في مواضع من شرح النووي على صحيح مسلم وهو الذي لقبه الشافعية بالشافعي الثاني

النصيحة والتآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر وأن اليأس من روح الله انما يكون من القوم الكافرين أو الضالين

لا بل اذا قلت له: ان هذا الضرب من ضروب التعليم عقيم لا ينتج المطلوب منه أو ان هذا الكتاب الذي تعود الطلاب قراءته قد يضر بقارئيه وغيره أفضل منه.. كاد يظن أن قولك هذا مخالف للدين ورأى العدول عما تعرده نوعا من الاخلال بالدين. وقد يقيم عليك حربا يعتقد نفسه فيها مجاهدا في سبيل الله اذا قلت له: ان دروس السلف كانت تقريرا للمسائل واملاء للحقائق على الطلاب ولم يكن لاحد منهم كتاب يأخذه بيده ويقرئه تلاميذه ولم يكن بأيدي الطلبة الا الاقلام والقراطيس يكتبون ما يسمعونه من أفواه أساتذتهم وقد يعترف لك بصحة ما تقول ولكنه يستمر في عمله اعتمادا على أنه وجد الناس هكذا يعملون فهل يخطر ببال عاقل ان هذا الجمود من الدين؟ وهل يرتاب من له أدنى ادراك في سوء عقباه على الدين وأهل الدين!

جناية الجمود على العقيدة

ذلك جمودهم في العمل وأشد ضررا منه الجمود في العقيدة نسوا ما جاء في الكتاب وأيدته السنة من أن الايمان يعتمد اليقين ولا يجوز الاخذ فيه بالظن وان العقل هو ينبوع اليقين في الايمان

بالله وعلمه وقدرته والتصديق بالرسالة وان النقل يتنوع له فيما بعد ذلك (١) من علم الغيب كاحوال الآخرة وفرض العبادات وهيآتها وان العقل ان لم يستقل وحده في ادراك ما لابد فيه من النقل فهو مستقل لامحالة في الاعتقاد بوجود الله وبأنه يجوز أن يرسل الرسل فتأتينا عنه بالمنقول — نسوا ذلك كله وقالوا: لابد من اتباع مذهب خاص في العقيدة وافترقوا فرقا وتمزقوا شيعا كما قلنا ولم يكفهم الالزام باتباع مذهب خاص في نفس المعتقد بل ذهب بعضهم الى انه لا بد من الاخذ بدلائل خاصة للوصول الى ذلك المعتقد فيكون التقليد في الدليل كالتقليد في المدلول وكانهم لذلك جعلوا النقل عمادا لكل اعتقاد وياليته النقل عن المعصوم بل النقل ولو عن غير المعروف فتقررت لديهم قاعدة: ان عقيدة كذا صحيحة لان كتاب كذا للمصنف فلان يقول ذلك: ولما كانت الكتب قد تختلف أقوالها صار من الصعب ان يجد الواحد منهم لنفسه عقيدة قارة صافية غير كدرة ولا متزعزعة. وقد سرى ذلك من قراء المقلدين الى أميهم

(١) يعني ان الاخذ بما جاء به الرسل متوقف بالفعل وفاقا لنظر العقل على التصديق بان الله أرسلهم فهو لا يكون الا بعده. وهذا قطعي بالنسبة الى من يدعى الى الدين من الكفار والى اقامة الحجة على المنكر وأما الناشيء في الاسلام فلا ترتيب عنده في ذلك فهو ياخذ العلم بالله وصفاته وادلتها العقلية من القرآن مباشرة

فتراهم يعتقدون كل ما يقال وينقل عن معروف الاسم وان لم يكن في حق الامر من أهل العلم وتتناقض عقائدهم على حسب تناقض مسموعاتهم

انجر التساهل في الاعتماد على النقل الى الخروج عما اختطه لنا السلف رضي الله عنهم فقد كانوا ينقبون عن صفات من ينقلون عنه ويمتحنون قوله حتى يكونوا على شبه اليقين من أنه موضع الثقة ولكن جمود المتأخر على ما يصل اليه من المتقدم صير النقل فوضى فتجد كل شخص يأخذ عمن عرفه وظن أنه أهل للاخذ عنه بدون بحث ولا تنقيب حتى شاع بين الناس من الاقوال وموضوعات الاحاديث ما ترتفع الاصوات بالشكاية منه من حين الى حين ، وكل ما تراه من البدع المتجددة فمنشؤه سوء الاعتقاد الذي نشأ من رداءة التقليد والجمود عند حد ماقال الاول بدون بحث في دليله ولا تحقيق في معرفة حاله واهمال العقل في العقائد على خلاف مايدعو اليه الكتاب المبين والسنة الطاهرة . دخلت على الناس لذلك عقائد يحتاج صاحب الغيرة على الدين في اقتلاعها من أنفسهم الى عناء طويل وجهاد شديد وسلاحه الكتاب وسلاح أعدائه أقوال بعض من تقدم من يعرف ومن لا يعرف — وما أكثر عدد من ينصر اعداءه اليوم وما أقلهم غدا إن شاء الله

سأل سائل من الاستاذ شيخ الجامع الازهر عن حكم عمل من

الاعمام الجارية في المساجد يوم الجمعة — ومنزلة الشيخ من الرياسة في أهل العلم بالدين منزلته — فأفتى بما ينطبق على السنة وما يعرفه العارفون بالدين وقال: ان العمل بدعة من البدع يجب التنزه عنها . أتظن أن المستفتي أمكنه العمل بمقتضى الفتيا ؟ كلا . حدث قيل وقال ، وكثرة تساءل ، ودخلت السياسة ثم قيل ان الزمان ناصر الحقيقة وقد وجدنا الامر كذلك من قبلنا . وسكت السائل وماذا يصنع المجيب؟ . نعم هذا من شؤم ذلك الجمود فقد فصل بين العامة ومن يرجى فيهم تقويم ما اعوج منها ووكلها الى أناس منها لا علم لهم بالدين ولا بالادب وقد غرسوا في أذهان لدهماء شر الغرس ولا تجني الامم منه الا أخبث الثمر . فلو قام العالم بالدين وأراد أن يبين حكم الله المصرح به في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم المجمع عليه عند السلف قاطبة انتصب له ناعر من العامة يصيح في وجهه « ماسمعنا بهذا في آبائنا الاولين » و يريد من آبائه الاولين من رآهم بعد ولادته أو ذكرت له أسماؤهم بلسان مضليه حتى صار ارشاد العامة اليوم من أصعب الامور وأشقها على طالبه

ماذا يمكن أن أقول أصبح الرجل يرتكب في وسائل العبادة أقبح المنكرات في الدين واذا دعي الى ترك المنكر نفر وزمجر ، وأبى واستكبر ، انظر ماذا يصنع الموسوسون ومن يقرب منهم في الاستبراء من البول على مرأى من المارة وفيهم النساء والاطفال وهم يظنون

أنهم يتقربون الى الله بما يفعلون

هذا هو شأن العامة يرون ما ليس بدين دينا ويصعب على حفاظ الدين ارشادهم بفضل جمودهم على ماورثوا من ملقنيهم بدون تعقل. فهذا معظم الامة تراه قد تملص من أيدي منذريه، ولوشاؤا لاقبل كل منهم على صاحبه وهو أيسر شيء على حملة الشريعة وما هو الا أن يرجعوا الى ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من سعة الدين وسماحته، ثم العمل على حفظته وحياته

﴿ الجمود ومتعلمو المدارس النظامية ﴾

ثم ان الجمود قد أحدث لنا فريقا آخر وهو فريق المتعلمين على الطرق الجديدة إما في مدارس الحكومات الاسلامية وإما في المدارس الاجنبية داخل بلادهم أو خارجا عنها. لا أتكلم عن هذا الفريق في بلاد القرم أو القوقاس أو سمرقند وبخارى أو الهند فاني لا أعرف كثيراً من أحوالهم ومن رأيته منهم رأيت فيه خيراً وأرجو أن يكون منهم لقومهم ما ينتظره الاسلام من العارفين به فقد رأيت أفراداً قليلين من هؤلاء تعلموا في البلاد الاوربية ودرسوا العلوم فيها درساً دقيقا وهم أشد تمسكا بلب الدين الاسلامي وروحه من كثير ممن يدعي الورع والتقوى ولا يسمحون لانفسهم بترك عادة

صحيحة من العادات التي أورثها دينهم قومهم فنعم المتعلمون هؤلاء أكثر الله منهم

وانما أتكلم عن هذا الفريق من المتعلمين في مصر وسورية وسائر بلاد الدولة العثمانية . سماحة الاسلام وسعة حلمه للعلم أباحت للمسلمين ان يرسلوا أولادهم ليأخذوا العلم في المدارس الرسمية وغير الرسمية عن أساتذة فيهم المسلم وغير المسلم أو عن أساتذة كلهم غير مسلمين بل في مدارس لم تبن الا لترويج دين غير الدين الاسلامي وأباحت لغير آباء هؤلاء التلامذة أن يسكتوا وأن لا ينكروا عليهم عملهم مادامت العقيدة سالمة من الهدم أو الضعضعة

جمود تلاميذ المدارس الاجنبية

هؤلاء التلاميذ ان كانوا في مدارس اجنبية لا اثر لتعليم الدين الاسلامي فيها بل ربما يتعلم فيها دين آخر فقد يسري الى عقائدهم شيء من الضعف وقد تذهب عقائدهم بالمرة وتحل مكانها عقائد أخرى تناقضها كما شوهد ذلك مرارا . ولو كان آباؤهم على علم بطرق الاستدلال لاقناعية لعقائد دينهم لدعموا من عقائد ابنائهم وحفظوها من التزلزل او الزوال . وكيف يكون لاولئك الآباء شيء من هذا العلم مع الجمود على طرق قديمة لا يصل الى فهمها من ينقطع لتعلمها فضلا عن اولئك المساكين . بل لو كان هناك مرشدون على طريقة

يسهل فهمها لتيسر لهؤلاء التلامذة ان يهتدوا بهديهم ولكن الجمود صير كل شيء صعبا. وكل أمر غير مستطاع

فهذه جناية من جنايات الجمود على أبناء المسلمين الذين يتعلمون في مدارس أجنبية يخرجهم من دينهم من حيث لا يشعرون . ويا ليتهم يستبدلون بالدين رادعا آخر من الادب والحكمة كما يرجو بعض المغرورين الذين لا يعلمون طبائع هذه الامم أو كما يروجه بعض من لا يريد الخير بها . ولكنه ترك أفئدتهم هواء خالية من كل زاجر او دافع اللهم الا زاجرا عن خير أو دافعا الى شر فاتخذوا إلههم هواهم وامامهم شهوتهم فهلكوا وأهلكوا. ومن هؤلاء ورثة الاغنياء الذين تصيح من شرور أعمالهم الجرائد كل يوم . فالجهل خير مما يتعلم هؤلاء بدون تربية وليت الاسلام لم يرحب صدره لمثل هذا الضرب من التعليم والتعلم

﴿ جمود تلاميذ المدارس الرسمية والاهلية : ﴾

أما المتعلمون في مدارس رسمية أو غير رسمية للتعليم الديني فيها شيء من البقية فهؤلاء ينشأون على شيء من المعارف في الفنون المختلفة وتقرر لهم حقائق في الكون السماوي أو الارضي أو في الاجتماع الانساني ومن عرف شيئا انطلق لسانه بالخوض فيه وقد يسمعه متنطع ممن يلبس لباس أهل الدين وهو جامد على ألفاظ سمعها فلو سمع غيرها أنكره وظنه مخالفا للعقيدة الصحيحة فيأخذ

يلوم المتعلم ويوبخه ويرميه بالمروق من الدين . هذ والمتعلم لا يشك في قوة دليله ولجهله بالدين يعتقد أن مايقوله خصمه منه فينفر من دينه نفرته من الجهل . ولو قال له قائل : ارجع الى كتب الدين تجد فيها ما يسرك وينصرك على نفسك وخصمك . حار لا يدري الى أي كتاب يرجع ولم يسهل عليه فهم تلك العبارات التي ورثها القوم على ما فيها من تشتيت وتعقيد وأبقوها كما ورثوها . فيعود الى النفور من الدين نفور طالب الفهم مما لا يمكنه فهمه

لهذا يعتقد أكثر هؤلاء ان الدين شيء غير مفهوم بل قد يعده بعضهم خرافة « نعوذ بالله » يأخذون عنه جانبا ويتركون عقائده وفضائله وآدابه ويلتمسون لهم آدابا في غيره وقلما يجدونها فتراهم وقد فترت قلوبهم وقصرت هممهم فلا يطلبون الا مانطلبه العامة من كسب معيشة او علوجاه ويسلكون الى ذلك أي طريق ولو أضروا بالعامة أو الخاصة « مادام الشرف محفوظا » فاذا وجد بينهم من يدعي الوطنية او الغيرة الملية أو نحو ذلك فانما ينثر الالفاظ نثرا لا يرجع فيها الى أصل ثابت ولا الى علم صحيح ولهذا يطلب المصلحة لبلاده من الوجه الذي يؤدي الى المفسدة وهو يشعر أولا يشعر على حسب حاله . ومنهم من يصيح باسم الدين ولا تتحرك نفسه لمعرفة حكم من أحكامه أو درس عقيدة من عقائده فشأنهم كلام في كلام ولبئس ما يصنعون . ولولا هذا الجمود لوجدوا في كتب دينهم وفي

أقوال حملته ما تبتهج به قلوبهم ، وتطمئن اليه نفوسهم ، ولذاقوا طعم العلم مأدوما بالدين. وتمكنوا من نفع أنفسهم وقومهم ولوجدت منهم طبقة معروفة يرجع اليها في سير الامة وسياسة أفكارها وأعمالها الاجتماعية .

﴿ الجمود علة تزول ﴾

﴿ المقال الخامس لذلك الامام الحكيم ﴾

(وفيه بيان علاج الداء)

تفصيل مضرات هذا الجمود وسيئاته يحتاج الى كتاب طويل فنكتفي بما أوجزناه في الصفحات السابقة. ولكن يبقى الكلام في أنه عارض يمكن زواله ان شاء الله تعالى .

قد عرفت من طبيعة الدين الاسلامي بعد عرضها عليك فيما سبق انها تسمو عن ان ينسب اليها هذا المرض الخبيث — مرض الجمود على الموجود — وكم في الكتاب من آية تنفر من اتباع الآباء مهما عظم امرهم بدون استعمال العقل فيما كانوا عليه ولا حاجة الى اعادة ذلك . ثم اننا أشرنا أيضا الى بعض الاسباب التي جلبت هذا الجمود على المسلمين لا على الاسلام وان محدثها إما عدو المسلمين طالب لخفض شأنهم أو لاستعبادهم واستغلال أيديهم لخاصة نفسه

وإما محب جاهل يظن خيرا ويعمل شرا. وهذا الثاني كان أشد نكاية وأعون على الغواية ، وهل تزول هذه العلة ويرجع الاسلام الى سيرته الاولى وكرمه الفياض وينهض بأهله الى ماذخر لهم فيه ؟؟

جاء في الكتاب المبين « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ذلك الذكر هو الذكر الحكيم ـ هو القرآن الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير. هو كما قال (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون) وعد الله بحفظ هذا الكتاب وقد انجز وعده لم تطل اليه يد عدو مقاتل ، ولا يد محب جاهل ، فبقي كما نزل ولا يضره عمل الفريقين في تفسيره وتأويله فذلك مما لا يلتصق به ، فهو لا يزال بين دفات المصاحف طاهرا نقيا بريئا من الاختلاف والاضطراب ، وهو إمام المتقين ، ومستودع الدين ، واليه المرجع اذا اشتد الامر ، وعظم الخطب ، وشمت النفوس من التخبط في الضلالات ، ولا يزال لأشعة نوره نفوذ من تلك الحجب التي أقاموها دونه ولا بد أن تتمزق كلها بأيدي أنصاره. فيتبلج ضياؤه لاعين أوليائه. ان شاء الله تعالى

هذا الضياء كان ولا يزال يلوح لامعه في حنادس الظلم لافراد اختصهم الله بسلامة البصيرة فيهتدون به اليه ويحمدون سراهم ، بما عرفوا من نجاح مسعاهم ، ولكن الذين أطبقت عليهم ظلم البدع وران على قلوبهم ما كسبوا من التحزب للشيع ، وطمست بصائرهم

وفسدت عقولهم ، بما حشوها من الاباطيل وبما عطلوها عن النظر في الدليل ، هؤلاء في عمى عن نوره وقلوبهم في أكنة ان يفقهوه وفي آذانهم وقر ، يصيحون بأنهم عمي صم فلا يرون له سناء ، ولا يسمعون له نداء ، ويعدون ذلك من كمال الايمان به ولبئس مارضوا لانفسهم من السفه وطيش الحلم وهم يعلمون ، هـذا حال الجمهور الاعظم ممن يوصفون بأنهم مسلمون ويجلبون العار على الاسـلام بدخولهم تحت عنوانه ، ويقوون حجج أعدائه في حربه بزعمهم الاجتماع تحت لوائه ، وما هم منه في شيء كما قدمنا

هؤلاء لابد أن يصيبهم ما أصاب الامم قبلهم فقد اتبعوا سننهم شبرا بشبر وذراعا بذراع وضيقوا على أنفسهم بدخولهم في جحر الضب الذي دخلوه (١) ومن اتبع سنن قوم استحق الوقوع تحت أحكام سنن الله فيهم. فان يخلص مما قضى الله في عذابهم ، فقد قص عليهم سير الاولين وبين لهم ما أنزل بهم عند ما انحرفوا عن سننه وحادوا عن شرعه ونبذوا كتابه وراءهم ظهريا — أحل بهم الذل ، وضرب عليهم المسكنة ، وأورث غيرهم أرضهم وديارهم فهل ينتظر المتبعون سننهم ، السائرون على أثرهم ، أن يصنع الله

(١) المنار في الكلام اشارة الى حديث «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعا بذراع حتي لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» الحديث رواه الشيخان وغيرهما

بهم غير الذي صنع بسابقيهم . وقد قضى بأن تلك سنته ولن تجد لسنته تبديلا

لا تزال الشدائد تنزل بهؤلاء المنتسبين الى الاسلام ولا تزال القوارع تحل بديارهم حتى يفيقوا (وقد بدأوا يفيقون من سكراتهم) و يفزعون الى طلب النجاة و يغسلوا قذى المحدثات عن بصائرهم وعند ذلك يجدون هذا الكتاب الكريم في انتظارهم : يعد لهم وسائل الخلاص ويؤيدهم في سبيله بروح القدس و يسير بهم الى منابع العلم فيغترفون منها مايشاؤون فيعرفون أنفسهم و يشهدون ما كان قد كمن فيها من قوة فيأخذ بعضهم بيد بعض و يسيرون الى المجد غير نا كلين ولا مخذولين . ولهذا أقول : ان الاسلام لن يقف عثرة في سبيل المدنية أبدا ولكنه سيهذبها و ينقيها من أوضارها وستكون المدنية من أقوى أنصاره متى عرفته وعرفها أهله . وهذا الجمود سيزول وأقوى دليل لك على زواله بقاء الكتاب شاهدا عليه بسوء حاله ولطف الله بتقييض أناس للكتاب ينصرونه ، و يدعون اليه و يؤيدونه ، والحوادث تساعدهم ، وسوط عذاب الله النازل بالجامدين ينصرهم

هذا الكتاب المجيد الذي كان يتبعه العلم حيثما سار شرقا وغربا لابد أن يعود نوره الى الظهور و يمزق حجب هذه الضلالات و يرجع الى موطنه الاول في قلوب المسلمين و يأوي اليها — العلم يتبعه وهو خليله الذي لا يأنس الا اليه ، ولا يعتمد الا عليه

يقول اولئك الجامدون الخامدون — كما يقول بعض أعداء القرآن: ان الزمان قد أقبل على آخره ، وإن الساعة أوشكت ان تقوم وان ماوقع فيه الناس من الفساد وما مني به الدين من الكساد وما عرض عليه من العلل وما نراه فيه من الخلل إنما هو أعراض الشيخوخة والهرم فلا فائدة في السعي ولا ثمرة للعمل فلا حركة إلا الى العدم ولا يصح أن يمتد بصرنا الا الى العدم ولا أن ننتظر من غاية لاعمالنا سوى العدم (نعوذ بالله) هؤلاء حفدة الجهل وأعوان اليأس يهرفون بما لا يعرفون . ماذا عرفوا من الزمان حتى يعرفوا أنه كاد ينقطع عند نهايته ؟ ان الذي مضى بيننا وبين مبدإ الاسلام ألف وثلاثمائة وعشرون عاما وانما هي يوم وبعض يوم أو بعض يوم فقط من أيام الله تعالى . وان آيات الله في الكون — وان كانت تدل على أن مامضى على الخليقة يقدر بالدهور الدهاريز — تشهد بأن مابقي لهذا النظام العظيم يقصر عن تقديره كل تقدير (فمالهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا)

ان مابيننا وبين مبدإ الاسلام لا يزيد عن عمر ستة وعشرين رجلا كل رجل يعيش خمسين سنة فهل يعد مثل ذلك دهرا طويلا بالنسبة الى دين عام كدين الاسلام ؟ ان زمنا كهذا لا يكفي — وقد تبين انه لم يكف — لاهتداء الناس كافة بهديه . ولم تقوم القيامة على الدين ولم تقم على شرههم وطمعهم ؟

قد وعد الله بأن يتم نوره و بأن يظهره على الدين كله فسار في سبيل التمام والظهور على العقائد الباطلة أعواما ثم انحرف به أهله عن سبيله وساروا به الى ما يرون ونرى ولن ينقضي العالم حتى يتم ذلك الوعد و يأخذ الدين بيد العلم و يتعاونا معا على تقويم العقل والواجدان فيدرك العقل مبلغ قوته ، و يعرف حدود سلطنته فيتصرف فيما آتاه الله تصرف الراشدين ، و يكشف مامكنه فيه من أسرار العالمين ، حتى اذا غشيته سبحات الجلال وقف خاشعا ،وقفل راجعا وأخذ اخذ الراسخين في العلم الذين قال فيهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) فيما روي عنه : « هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب ، الاقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب ، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول مالم يحيطوا به علما، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخا » واعتبر بعد ذلك بقوله : « فاقتصر على ذلك ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين هو القادر الذي اذا ارتمت الاوهام لتدرك منقطع(١) قدرته وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوسواس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته ، وتولهت (٢) القلوب اليه لتجري في كيفية صفاته وغمضت

---

(١) المنقطع ما ينقطع عنده الشيء وهو آخره (٢) تولهت اشتد عشقها

مداخل العقول في حيث لاتبلغه الصفات لتناول علم ذاته ، ردعها وهي تجوب مهاوي سدف (١) الغيوب متخلصة اليه سبحانه ، فرجعت اذ جبهت (٢) معترفة بأنه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته ولا تخطر ببال أولي الروايات خاطرة من تقدير جلال عزته »

هنالك يلتقي (أي العقل) مع الوجدان الصادق (القلب) ولم يكن الوجدان ليدابر العقل في سيره داخل حدود مملكته متى كان الوجدان سليما ، وكان ما استضاء به من نبراس الدين صحيحا اياك ان تعتقد ما يعتقده بعض السذج من ان فرقا بين العقل والوجدان (القلب) في الوجهة بمقتضى الفطرة والغريزة . فانما يقع التخالف بينهما عرضا عند عروض العلل والامراض الروحية على النفوس . وقد أجمع العقلاء على ان المشاهدات بالحس الباطني (الوجدان أو القلب) من مبادي البرهان العقلي كوجدانك انك موجود ووجدانك لسرورك وحزنك وغضبك ولذتك وألمك ونحو ذلك

منحنا العقل للنظر في الغايات ، والاسباب والمسببات والفرق بين البسائط والمركبات — والوجدان لادراك ما يحدث في النفس والذات من لذائذ وآلام وهلع واطمئنان وشماس واذعان ونحو

(١) السدف جمع سدفة كظلمة لفظا ومعنى (٢) جبه ضربت جبهته ورد

ذلك مما يذوقه الانسان ولا يحصيه البيان فهما عينان للنفس تنظر بهما — عين تقع على القريب وأخرى تمد الى البعيد وهي في حاجة الى كل منهما ولا تنتفع باحداهما حتى يتم لها الانتفاع بالاخرى فالعلم الصحيح مقوم الوجدان . والوجدان السليم من أشد أعوان العلم . والدين الكامل علم وذوق، عقل وقلب، برهان واذعان ، فكر ووجدان. فاذا اقتصر دين على أحد الامرين فقد سقطت احدى قائمتيه. وهيهات ان يقوم على الاخرى. ولن يتخالف العقل والوجدان حتى يكون الانسان الواحد إنسانين والوجود الفرد وجودين

قد يدرك عقلك الضرر في عمل ولكنك تعمله طوعا لوجدانك وربما أيقنت المنفعة في أمر وأعرضت عنه اجابة لدافع من سريرتك فتقول : ان هذا يدل على تخالف العقل والوجدان . ولكني أقول ان هذه حجة من لا يعرف نفسه ولا غيره . عليك ان ترجع الى نفسك فتتحقق من أحد الامرين — اما أن يقينك ليس بيقين وانه صورة عرضت عليك من قول غيرك فأنت تظنها علما وما هي به : واما أن وجدانك وهم تمكن فيك وعادة رسخت في مكان القوة منك، وليس بالوجدان الصحيح وانما هو عادة ورثتها عمن حولك وظننتها شعورا منبعه الغريزة وما هي منه في شيء

(نتيجة) لابد أن ينتهي أمر العالم الى تآخي العلم والدين على سنة القرآن والذكر الحكيم . ويأخذ العالمون بمعنى الحديث

الذي صح معناه (١) « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله » وعند ذلك يكون الله قد أتم نوره ولو كره الكافرون (٢) وتبعهم الجامدون القانطون . وليس بينك وبين ما أعدك به الا الزمان الذي لا بد منه في تنبيه الغافل وتعليم الجاهل وتوضيح المنهج وتقويم الاعوج وهو ما تقتضيه السنة الالهية في التدريج (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) . (انهم يرونه بعيداً

---

(١) المنار — قال العراقي : رواه أبو نعيم في الحلية بالمرفوع منه باسناد ضعيف. ورواه الاصبهاني فى الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه . ورواه الطبراني في الاوسط والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وقال : هذا اسناد فيه نظر. قلت فيه الوازع بن نافع متروك . وقال الزبيدى في شرح الاحياء : قلت حديث ابن عمر لفظه « تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله » هكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر وأبو الشيخ في العظمة والطبراني فى الاوسط وابن عدي وابن مردويه والبيهقي وضعفه والاصبهاني وأبو نصرفي الابانة وقال غريب . ورواه ابو الشيخ من حديث ابن عباس « تفكروا في الخلق ولا تفكروا فى الخالق فانكم لاتقدرون قدره » ورواه ابن النجار والرافعي من حديث أبي هريرة « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله » الخ. وتعدد هذه الروايات واجتماعها يكسبها قوة والمعنى صحيح كما قال الحافظ السخاوي في المقاصد

(٢) الكافر من يرى الدليل فيصد عنه ولا ينظر فيه او ينظره فيعرف الحق ثم يماري فيه وينكره عنادا . اهـ من هامش الاصل.

ونراه قريباً ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) وهو خير الناصرين

﴿ حرية العلم في أوربا الآن ﴾

﴿ ونسبتها الى الماضي والحاضر في الاسلام ﴾

(وهو المقال السادس لذلك الامام الحكيم)

لم يبق علينا من الكلام الا ما يتعلق بالامر الرابع مما ذكرته الجامعة (١) وهو « ان تمكن العلم والفلسفة من التغلب على الاضطهاد المسيحي في أوربا وعدم تمكنهما من التغلب على الاضطهاد الاسلامي دليل واقعي على أن النصرانية كانت أكثر تسامحا مع الفلسفة »

ليس من السهل عليّ أن أعتقد أديباً كصاحب الجامعة يقول هذا القول وهو ناظر الى الحقيقة بكلتا عينيه مع معرفته بلسان الغربيين واطلاعه على ما كتبوا في هذه المسألة وهي من أهم المسائل التاريخية وانما هي عين الرضى تناولت من حاضر الحال ومما انتهى اليه سير التاريخ ماتناولت ثم أملت على قلبه ماجرى به قلمه

هل يصح ان تسمى الاستكانة للغالب تسامحا ؟ وهل يسمى العجز مع التطلع للنزاع عند القدرة حلما؟ أم يسمى غل الايدي عن

(١) يذكر القراء ان كلام الجامعة فى الطعن بالاسلام كان مبنياً على اربعة امور تقدم الرد على ثلاثة منها وفي هذا المقال الرد على الرابع

الشر بوسائل القهر كرما ؟ هل تعدمسا كنة جناب البابا الملك ايطاليا في مدينة واحدة واجتماع الكرسيين العظيمين كرسي المملكة الايطالية وكرسي المملكة البابوية في عاصمة واحدة تسامحا من قداسة البابا مع الملك ؟ أليس الاجدر بالمنصف أن يسمي ذلك تسامحا من الملك مع البابا لانه صاحب القوة والجيش والسلطنة ويمكنه أن يسلب البابا تلك الثمالة التي بقيت له من السلطة الملكية ؟ كما أن الاليق به أن يسمي تلك الحالة التى عليها اهل أو ربا اليوم من طمأنينة العلم بينهم بجانب الدين تساهلا من العلم مع الدين لا تسامحا من الدين مع العلم بعد ما كان بينهما من الحوادث ما كان وبعد غلبة العلم واستيلائه على عرش السلطان في جميع الممالك ورضاء الدين بأن يكون تابعاً له في أغلبها

﴿ اقتباس مدنية أوربا من الاسلام ﴾

﴿ وأسباب ظهورها التام ﴾

السبب الاول الجمعيات :

كان جلاد بين العلم والدين في أوربا وتألفت لنصرة العلم جمعيات واحزاب منها ما اتخذ السر حجابا له حتى يقوى ومنها ما أبتدأ بالمجاهرة . وكان الدين يظفر بالعلم كما سبق بيانه لكثرة أعوانه وضعف أعوان العلم حتى أشرقت الآداب المحمدية على تلك البلاد

من سماء الاندلس وتبع اشراق تلك الآداب واشتغال الناس بها سطوع نور العلم العربي من الجانب الشرقي كما ذكرنا . وقد وجد هذان النوران استعداداً من النفوس للاستضاءة بهما في السبيل التي تؤدي بهما الى المدنية التى كان يحملانها. هذا الاستعداد كسبته الانفس بما ضايقها من غلو رؤساء الدين. في استعمال سلطانهم واشتدادهم في استعباد العقل والوجدان حتى ضاق ذرع الفطرة عن الاحتمال فأخذ الشعور الانساني يتلمس السبيل الى الخلاص و إذلاح له هذان النوران اتخذهما له هداية واستقبلهما بوجهه وكان بعد ذلك ما كان من تأثر الدين لاهل العلم واحراقهم بالنيران ، ونفيهم من الاوطان ، ومقاومة رؤساء الدين للحكومات ولاهل الافكار المستقلة في أدنى الاشياء وأعلاها حتى انه عند ماشرع ملوك فرنسا في فرش شوارع باريس بالبلاط على الاسلوب الذي وجدوه في في مدينة قرطبة وصدر الامر بمنع تربية الخنازير في تلك الشوارع أغضب ذلك قسوس القديس أنطوان ونادوا بان خنازير القديس لابد أن تمر في الشوارع على حريتها الاولى وحصل لذلك شغب عظيم اضطر الحكومة أن تسمح بذلك مع صدور الامر بان توضع في أعناقها أجراس. وقالوا ان الملك فيليب السمين مات بسقطة عن فرسه عند ما انزعج الفرس من منظر خنزير وصلصلة الجرس في عنقه لقائل ان يقول : ان القسوس في ذلك الزمان كان يمكنهم

أن يمتنعوا من وضع الاجراس في أعناق الخنازير فرضاهم بذلك يعد تسامحا عظيما مع العلم (أو الصناعة) و يسهل علي أن أوافقه على ان مثل هذا الضرب من التسامح في أجراس الخنازير كان يظهر من حين الى حين الا أنه فيما أظن لا يكفي في تشييد هذه المدنية التي يفتخر بها الاوربيون اليوم ونحن لانبخسها قدرها كذلك

﴿ السبب الثاني الضغط الديني ﴾

شدة الحاجة وغلو الرؤساء كانا يوقدان الغيرة في قلوب طلاب العلوم فلم تفتر لهم همة . فعظم أمرهم وا كتشفوا كثيرا من الحقائق التى نفعت العامة ونبهت العقول للاخذ بما يهتدون اليه وصارت الحرب بينهم و بين رؤساء الدين سجالا الى أن ظهر دعاة الاصلاح الديني (البروتستانت) فانضم دعاة العلم اليهم ظنا منهم أن سيكونون معهم من المجاهدين في سبيل العلم . وكان منهم ايراسم الشهير فلما انتصر طلاب الاصلاح ودالت لهم دولة استمروا يعاقبون بالموت على الافكار التي تخالف ظاهر ما يعتقدون كما تقدم فانفصل ايراسم ومن معه من حماة الحرية واستقلال الارادة الشخصية وترك المصلحين يتفرقون شيعا ويقتل بعضهم بعضا وقال : ما كنت أظن ان دعاة الاصلاح يكونون كذلك أعداء العلم

هذه الطوائف التي تفرقت عقائدها في الاصلاح لم تنتظر الا أن تأمن عدوها العام وهو الكنيسة الكاثولكية الرومانية فلما أمنتها أخذ بعضها يصول على بعض واشتعلت نيران الحروب بينهم قال أحد أفاضل مؤرخيهم . « وكلما ارتفعت طائفة منهم الى عرش القوة لوثت يديها بالجرائم في العمل لافناء البقية حتى سئمت النفوس دوام تلك الحال ووجدت من توالي حوادث الانتقام وظهور مضاره في كل طائفة ان الافضل لكل طائفة ان تمنح الاخرى من الحرية مالا تستغني عنه واحدة منهما . والعلم كان يعمل عمله في كشف الحقائق وترقية الآداب وكان من أقوى المنبهات الى مضار الحروب ومفاسد العدوان على حرية الاشخاص من أي طائفة كانت . من هذا نشأ ذلك الاصل العظيم أصل التسامح والرضى بمجاورة المخالف في الرأي : نشأ من القهر والقسوة التي كانت كل طائفة تعامل بها الاخرى » انتهى كلام المؤرخ بالمعنى

السبب الثالث الثورة :

ولا حاجة بي الى ذكر ما جاءت به الثورة الفرنسية وكيف كانت قيامتها على الدين ورؤسائه مما هو معلوم . وإنما أنبه القارىء الى الاعتبار بما تقدم من القول . وبما يمكنه أن يقف عليه في كتب القوم ليعلم ان الدين المسيحي في أوربا لم يحتمل العلم فضلا وكرما

و إنما قويت عليه أحزاب العلم فساموه استكانة وخضوعا ، ولو شاء أن لايحتمل لم يستطع الى ذلك سبيلا .

السبب الرابع ترك المسيحية :

رؤساء الدين المسيحي رجال ذوو عزيمة واقدام وغيرة على دينهم قلما بدانيهم فيها رؤساء دين من الاديان . وهم مع غلوهم في الدين واشتدادهم في استعمال سلطانهم على النفوس كانوا ولا يزالون يتخذون كل وسيلة لتأييد دينهم . وهم أشد الناس حرصا على تقويم أركانه ودفع الشبه عنه ولم يزدهم العلم الجديد الا وسائل وسبلا لترويج عقائده وآدابه ولم تفتر لهم همة في نشره وتزيينه للقلوب . ومع ذلك كله نرى ان رجال العلم وحماة المدنية يتسللون منه ، والعامة من الشعوب في تخاذل عنه ، والامة الفرنسية التي كانت تدعى بنت الكنيسة أصبحت من أشد الناس عليه ، ورأت فلسفتها أن تحدد حرية أهل الدين في تعاليمهم واجتماعهم : كل ذلك ومدارس اللاهوت لا تزال عامرة وطلاب اللاهوت يمدون بالالوف : كل ذلك وكثير من الدول ترى من مزاياها حماية الدين المسيحي في أقطار الارض .

قال احد رؤساء البروتستان في خطبة من خطبه التي ألقاها في بعض البلاد الفرنسية سنة ١٩٠١ بعد كلام له في أن المسيحية

رومانية أو بروتستانية فقدت خاصتها الدينية كما فقدت فائدتها الاجتماعية مانصه مترجما : اذا كان الدين المسيحي ليس شيئا سوى الكثلكة المحتاجة الى الاصلاح (المذهب الروماني) أو الكثلكة التى دخلها الاصلاح بالفعل (المذهب البروتستني) فالقرن الموفي للعشرين (القرن الحاضر) لا يكون مسيحيا أبدا »

وقد جاء في كلام هذا الخطيب ما يصرح بانه يريد أن يطلب المسيحية معنى آخر ينطبق كل الانطباق على اعتقاد المسلمين فيها فان وفق للنجاح في سعيه زال الخلاف — ان شاء الله — بين الدين والعلم بل بين المسيحية والاسلام

﴿ عود الى سماحة الاسلام ﴾

آخذ بيد القارىء الآن ، وأرجع به الى مامضى من الزمان وأقف به وقفة بين يدي خلفاء بنى أمية والائمة من بني العباس ووزرائهم . والفقهاء والمتكلمون والمحدثون والائمة المجتهدون من حولهم ، والادباء والمؤرخون والاطباء والفلكيون والرياضيون والجغرافيون والطبيعيون وسائر أهل النظر من كل قبيل مطيفون بهم وكل مقبل على عمله فاذا فرغ عامل من العمل أقبل على أخيه ووضع يده في يده يصافح الفقيه المتكلم والمحدث الطبيب والمجتهد الرياضي والحكيم وكل يرى في صاحبه عونا على ما يشتغل هو به .

وهكذا أدخل به بيتا من بيوت العلم فاجد جميع هؤلاء سواء في ذلك البيت يتحادثون ويتباحثون والامام البخاري حافظ السنة بين يدي عمران بن حطان الخارجي يأخذ عنه الحديث . وعمرو بن عبيد رئيس المعتزلة بين يدي الحسن البصري شيخ السنة من التابعين يتلقى عنه وقد سئل الحسن عنه فقال للسائل . « لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته، وكأن الانبياء ربته إن قام بامر قعد به وان قعد بأمر قام به ،وان أمر بشيء كان ألزم الناس له، وان نهى عن شيء كان اترك الناس له ، ما رأيت ظاهرا أشبه بباطن منه ولا باطنا أشبه بظاهر منه » بل أرفع بصري فاجد الامام أبا حنيفة أمام الامام زيد بن علي (صاحب مذهب الزيدية من الشيعة) يتعلم منه أصول العقائد والفقه ،ولا يجد أحدهم من الآخر الا مايجد صاحب الرأي في حادثة ممن ينازعه فيه اجتهاداً في بيان المصلحة وهما من أهل بيت واحد — أمرّ به بين تلك الصفوف التي كانت تختلف وجهتها في الطلب وغايتها واحدة وهي العلم . وعقيدة كل واحد منهم أن فكر ساعة خير من عبادة ستين سنة كما ورد في بعض الاحاديث (١)

(١) المنار رواه أبو الشيخ ابن حبان في العظمة عن ابي هريرة بسند ضعيف . ورواه من طريقه ابن الجوزي في الموضوعات ولكن له روايات اخرى منها رواية الديلمي في مسند الفردوس عن انس بلفظ (ثمانين سنة) وفي رواية موقوفة على ابن عباس «خير من قيام ليلة» ولشهرة هذا المعنى قال الغزالي وردت السنة بكذا

الخلفاء أئمة في الدين مجتهدون و بأيديهم القوة وتحت أمرهم الجيش، والفقهاء والمحدثون والمتكلمون، والائمة المجتهدون الآخرون هم قادة أهل الدين ومن جند الخلفاء، الدين في قوته والعقيدة في أوج سلطانها، وسائر العلماء ممن ذكرنا بعدهم يتمتعون في أكنافهم بالخير والسعادة ورفه العيش وحرية الفكر، لافرق في ذلك بين من من دينهم ومن كان من دين آخر فهنالك يشير القارىء المنصف الى اولئك المسلمين، وأنصار ذلك الدين ويقول ههنا، يطلق اسم التسامح مع العلم في حقيقته، ههنا يوصف الدين بالكرم، والحلم ههنا يعرف كيف يتفق الدين مع المدنية، عن هؤلاء العلماء الحكماء تؤخذ فنون الحرية في النظر، ومنهم تهبط روح المسالمة بين العقل والوجدان (أو بين العقل والقلب كما يقولون)

يرى القارىء انه لم يكن جلاد بين العلم والدين. وانما كان بين أهل العلم أو بين أهل الدين شيء من التخالف في الآراء شأن الاحرار في الافكار الذين أطلقوا من غل التقييد، وعوفوا من علة التقليد، ولم يكن يجري فيما بينهم اللمز والتنابز بالالقاب، فلا يقول أحد منهم لآخر انه زنديق أو كافر أو مبتدع، او ما يشبه ذلك. ولا تتناول احد منهم يد بأذى الا اذا خرج عن نظام الجماعة، وطلب الاخلال بأمن العامة، فكان كالعضو المجذم فيقطع ليذهب ضرره عن البدن كله

﴿ ملازمة العلم للدين ﴾

﴿ وعدوى التعصب في المسلمين ﴾

متى ولع المسلمون بالتكفير والتفسيق ورمي زيد بأنه مبتدع وعمرو بأنه زنديق ؟ أشرنا فيما سبق الى مبدإ هذا المرض ونقول الآن: إن ذلك بدأ فيهم عند ما بدأ الضعف في الدين يظهر بينهم وأكلت الفتن أهل البصيرة من أهله — تلك الفتن التي كان يثيرها أعداء الدين في الشرق وفي الغرب لخفض سلطانه ، وتوهين أركانه — وتصدر للقول في الدين برأيه من لم تمتزج روحه بروح الدين ، وأخذ المسلمون يظنون أن من البدع في الدين ما يحسن احداثه لتعظيم شأنه تقليدا لمن كان بين أيديهم من الامم المسيحية وغيرها . وأنشأوا ينسون ماضي لدين ومقالات سلفهم فيه ، ويكتفون برأي من يرونه من المتصدرين المتعالمين ، وتولى شؤون المسلمين جهالهم ، وقام بارشادهم في الاغلب ضلالهم ، في أثناء ذلك حدث الغلو في الدين ، واستعرت نيران العدوات بين النظار فيه ، وسهل على كل منهم لجهله بدينه أن يرمي الآخر بالمروق منه لادنى سبب . وكلما ازدادوا جهلا بدينهم ازدادوا غلوا فيه بالباطل ودخل العلم والفكر والنظر (وهي لوازم الدين الاسلامي) في جملة ما كرهوه ، وانقلب عندهم ما كان واجبا من الدين محظورا فيه

لا أكاد أخطىء القارىء اذا زعم ان المسلم إنما استفاد اسم زندقة وتزندق ومتزندق وزنديق من فضل ما علمه جيرانه اذا كانوا يقولون : هرتقة وتهرتق وهو هرتوقي : أو ما يماثل ذلك — أو زعم أن قد فشت في المسلمين سرعة التكفير بطريق العدوى من أهل الملل المتشددة . وان الذي سهل سريان العدوى بتلك السرعة الشديدة هو ضعف المزاج الديني عند المسلمين بجهلهم بأصوله مقوماته ، ومتى ضعف المزاج استعد لقبول المرض كما هو معلوم

إن المسلمين لما كانوا علماء في دينهم كانوا علماء الكون وأئمة العالم . أصيبوا بمرض الجهل بدينهم فانهزموا من الوجود وأصبحوا أكلة الآكل ، وطعمة الطاعم ، هل وقف الجهل بالمسلمين عند تكفير من يخالفهم في مسائل الدين أو يذهب مذهب الفلاسفة أو ما يقرب من ذلك ؟ لا بل عدا بهم الجهل على أئمة الدين ، وخدمة السنة والكتاب فقد حملت كتب الامام الغزالي الي غرناطة وبعد ما انتفع بها المسلمون أزمانا هاج الجهل بأهل تلك المدينة وأنطلقت ألسنة المتعالمين من البربر بتفسيقه وتضليله ، فجمعت تلك الكتب خصوصا نسخ « احياء علوم الدين » ووضعت في الشارع العام في المدينة وأحرقت . قال قوم يعدون أنفسهم مسلمين في ابن تيمية — وهو أعلم الناس بالسنة وأشدهم غيرة على الدين — : انه ضال مضل : وجاء على أثر هؤلاء مقلدون يملؤون أفواههم بهذه الشتائم وعليهم اثمها واثم من يقفوهم بها الى يوم القيامة

﴿ اهمال آثار السلف ﴾

﴿ وحال علوم الدين وطلابها ﴾

أهمل المسلمون علوم دينهم والنظر في أقوال سلفهم ، حتى انك لاتجد اليوم في أيديهم كتابا من كتب أبي الحسن الاشعري ولا أبي منصور الماتريدي ، ولا تكاد ترى مؤلفا من مؤلفات أبي بكر الباقلاني أو أبي اسحق الاسفرايني . واذا بحثت عن كتب هؤلاء الائمة في مكاتب المسلمين أعياك البحث ، ولا تكاد تجد نسخة صحيحة من كتاب. كتب على القرآن تفاسير كثيرة في القرن الثالث من الهجرة وما بعده الى السادس — منها تفسير الطبري وتفسير أبي مسلم الاصفهاني وتفسير القرطبي وتفسير الجصاص وتفسير الغزالي وتفسير أبي بكر ابن العربي وكثير غيرها(١) وفيها من آراء اولئك الائمة ووجوه استنباط الحكم والاحكام ما لا غني لطالب علم الدين عنه . فهل يجد الباحث المجد نسخة من هذه الكتب الجليلة يمكن الوثوق بصحتها الا بطريق المصادفة وحسن الاتفاق ؟ وهل يليق بامة تدعي

---

(١) قد طبع بعد وفاة الاستاذ رحمه الله تفسيري الجصاص الحنفي وابن العربي المالكي وكلاهما خاص باحكام القرآن الفقهية ومن انفس ما الف فيها

أنها على دين وان لها فيه سلفا أن تهجر آثار سلفها وتدع ما كتبوا طعمة للعث وفراشا للتراب ؟ هل وقع مثل ذلك من المشتغلين باللاهوت المسيحي في زمن من الازمان ؟

ان حالة طلبة العلوم الدينية الاسلامية أصبحت مما يرثى له في أكثر بلاد المسلمين، فهم لا يقرءون من كتب الكلام الا مختصرات مما كتب المتأخرون ، يتعلم أذكاهم منها ماتدل عليه عباراتها ولا يستطيع أن يتعلم البحث في أدلتها وتصحيح مقدماتها، وتمييز صحيحها من باطلها، وانما يتلقاها كانها كتاب الله أو كلام نبيه صلى الله عليه وآله وسلم يأخذ مافيها بالتسليم . فاذا ناظره مناظر في بعض قضاياها وعجز من تصحيحه قطع الجدال بقوله: هكذا قالوا. وان لم يكن القول متفقا عليه ، بل قد يكون القول مما لم يقل به سوى صاحب الكتاب الذي اشتغل به، وربما كان صاحب الكتاب ممن لو رآه أحد من السلف لم يرضه تلميذا يعي عنه مايقول .

كاد ينقطع طلب العلوم الدينية في سورية والحجاز وتونس والجزائر، وقل جدا في المغرب الاقصى ، ولم يبق الاهتمام به الا في بعض الصحاري، وذلك اما لصعوبة طرق التعليم، واقتضائها الزمن الطويل — وحاجات الناس مانعة لهم من افناء أعمارهم في عمل لا يسد من حاجتهم — واما لتفضيل الآباء تربية أبنائهم على الطرق الحديثة في أوربا أو في المدارس الاخرى وليس فيها من الدين شيء ، وان

كان فيها شيء منه فهو مما لايعد تعليما دينيا ينظر اليه — واما للفتور والخمود، الذي نشأ عن التقليد والجمود . وبذلك تجد المسلمين قد تولاهم الجهل بدينهم، وأخذتهم البدع من جميع جوانبهم ، وانقطعت الصلة الحقيقية بينهم و بين سلفهم، حتى لو عرض على الجمهور الاعظم منهم ما اتفق عليه السلف من الاحكام لانكروه واستغربوه وعدوه بدعة فى الدين. وصح فيهم ما قال عمر الخيام في بعض أشعاره الفارسية مخاطبا للنبي عليه الصلاة والسلام : « ان الذين جاؤا بعدك زينوا لك دينك ووشوه وزركشوه حتى لو رأيته أنت لا نكرته »

فهذا الصنف من المسلمين وهو معظمهم قد أنكر دينه الحق وعاداه ونقم على أهله القائمين بخدمته، وانما اصطفى لاعتقاده بعض أفراد لم يعرف عن السلف اختصاصهم بالثقة، ولم يسمح الدين باختصاصهم بالتقليد ،فاذا وقع عن هذا الصنف ما فيه أذى للعلم وأهله فهل يعد ذلك واقعا من دين الاسلام — دين محمد صلى الله عليه وسلم — دين القرآن — دين السنة الثابتة — دين الخلفاء الراشدين ومن تبعهم من السلف الاولين ؟ ؟

متابعة العلم للاسلام ومباينته لسواه :

الحق أقول والحس يؤيدني : ماعادوا العلم ولا العلم عاداهم الا من يوم انحرافهم عن دينهم وأخذهم فى الصد عن علمه ، فكلما بعد

عنهم علم الدين بعد عنهم علم الدنيا وحرموا ثمار العقل . وكانوا كلما توسعوا فى العلوم الدينية ، توسعوا فى العلوم الكونية ، وضربوا الزمان بسوط من العزة ، أما غيرهم فكلما اتصلوا بالدين وجدوا في المحافظة عليه أنكرهم العلم وتجهمهم واكفهر وجهه للقائهم . وكلما بعدوا من الدين سالمهم العلم وبش في وجوههم ولذلك يصرحون بان العلم من ثمار العقل والعقل لا يصح أن يكون له فى الدين عمل ، ولا أن يظهر منه فيه أثر ، والدين من وجدانات القلب ولا علاقة بين مايجد القلب وما يكسب العقل . فالفصل تام بين العقل والدين ولا سبيل الى الجمع بينهما : سامحهم الله فيما يسمونه تسامحا مع العلم ، وهم يصرحون بأنه عدوه الذي يستحيل أن يكون بينه وبينه سلم

هل عرفت السبب في اضطهاد المسلمين للعلم ؟ أقول «اضطهاد» ولا أريد به ما كان عند الامم المسيحية من الاشتداد في إبادة أهله والتنكيل بهم ، واختراع ضروب التعذيب والتفنن في صنع الآت الهلاك ، مع الاخذ بالشبهة ، والاكتفاء في الاعدام بمجرد التهمة ، فان ذلك لم يقع عند المسلمين لا أيام علمهم ، ولا في أزمنة جهلهم ، ولكن أريد من الاضطهاد الاعراض عن العلم ، ورمي الالفاظ السخيفة في وجوه أهله وقذفهم بشيء من الشتائم مع الابتعاد عنهم . لا ريب انك قد أيقنت بأن السبب في هذا الذي يسميه الاديب اضطهاداً انما هو جهلهم بدينهم . فالدواء الذي ينجع في شفائهم من هذا

الداء لا يكون الا ردهم الى العلم بدينهم ، والتبصر فيه للوقوف على أسراره والوصول الى حقيقة مايدعو اليه . كان الدين واسطة التعارف بينهم و بين العلم ، فلما ذهبت الواسطة تناكرت النفوس وتبدل الانس وحشة

الدعاة في الاسلام :

فهل قام بينهم دعاة للعلم حقيقيون ، أودعاة لاصل الدين عارفون ، ثم استعصت قلوب المسلمين عليهم وجمت نفوسهم عن الانقياد لهم ؟ وهل كثر اولئك الدعاة في أطراف بلاد المسلمين كثرتهم في أوربا من أواسط القرن السابع عشر من التاريخ المسيحي (١) الى أن ظهرت قوة العلم في أوائل القرن السابع عشر وفيما بعد ذلك ؟ لا . انما رأينا من الصادقين أفرادا يظهرون متفرقين في عصور مختلفة ربما لا يجتمع أربعة منهم فما يزيد في قرن واحد ، ويأخذون في العمل لما وجهوا اليه ، ثم لا يكادون ينطقون ببعض الكلام فيحس الناس بهم فيأخذ المستعد أهبته لمفارقة ما كان عليه واتباعهم حتى تشعر السياسة (نعوذ بالله منها) بما عسى أن يكون من أمرهم فتخمد أنفاسهم ، قبل أن يبلغوا من قلب احد ما أرادوا من غرس أفكارهم ،

« ١ » كذا فى الاصل المطبوع على عهد المؤلف ولعله القرن الرابع عشر

فينطفىء النور، ويدلهم الديجور، فهل يعد الاديب هذه الضربات من أيدي أرباب السياسة اضطهادا للعلم لاجل حماية الدين؟ أنزه كل أديب عن أن يظن ذلك، وانما هي صدمات تقع على الدين لا تختلف عن أمثالها مما يصيبه منهم مباشرة، فلا تعد حجة على الدين في نظر المنصف

المقلِّد دون المقلَّد

ربما يقول القائل: ان كان المسلمون قد أخذوا الجمود في التقليد والنفرة من العلم والاعتقاد بالعداوة بين الدنيا والآخرة وبين العقل والدين وما أشبه ذلك مما هم فيه وورثوه عن الامم السابقة عليهم، خصوصا أقرب الملل اليهم، فما بالهم لم يقلدوا المسيحيين في الحرص على نشر دينهم والتوسع في علومه مذيلا بما أخذوه عنهم، ولم يقسموا أنفسهم قسمين كما قسم المسيحيون اخوانهم قسمين: قسما ينقطع الى الآخرة في الاديار والصوامع وقسما يشتغل بالدنيا ليقيت نفسه ويقيت أهل القسم الاول ويحمي نفسه ويحميهم من العدوان؟ وما لك ترى المسلمين خملوا وارتخت اعصابهم وسئموا النظر في علوم دينهم كما ذكرت ثم صاروا أبعد الناس عن معرفة الطرق لتحصيل الغنى والثروة، والقبض على ناصية القوة وصولجان العزة؟ وطرحوا أنفسهم في تيار من القدر كما يقولون، يجري بهم الى حيث

لا يعلمون ؟ ثم هم مع ذلك أحرص الناس على حياة ، وأشدهم لهفا على الحطام ، فلا ترى الجمهور منهم في شيء للدين ولا للدنيا فما هذا التناقض ؟

فأقول له : انك قد نسيت ان المقلد يكون دائما أحط حالا وأخس منزلة من المقلد . فالمقلد انما ينظر من عمل المقلد الى ظاهره ولا يدري سره ولا مابنى عليه . فهو يعمل على غير نظام ، و يأخذ الامر لا على قاعدة ، ولذلك سقط المسلمون في شر مما كان عليه مقلدوهم ، لا سيما أنهم قد خلطوا في التقليد وأضافوا الى دينهم مالا يمكن أن يتفق معه ، فصاروا في مثل حال المتخبط الذي تنازعه عدة قوى يذهب مع كل منها آنا ثم ينتهي أمره بعد الخيبة بالتعب الشديد ، فيستلقي الى أن يستريح فينهض الى العمل على هدى أو يموت .

لما كان المسلمون علماء كانت لهم عينان : عين تنظر الى الدنيا والاخرى تنظر الى الآخرة فلما طفقوا يقلدون أغمضوا إحدى العينين ، وأقذوا الاخرى بما هو أجنبي عنهم ففقدوا المطلبين ، ولن يجدوهما إلا بفتح ما أغمضوا ، وتطهير ما أقذوا

الاصلاح والمصلحون :

للقائل أن يقول : كيف تدعي أن دعاة العلم والدين قليل بين المسلمين مع أننا نسمع أصواتهم تتلاقي في جو مصر وسورية وغيرهما

من البلاد في هذه الايام ؟ كل يقول : ديني ملتي : اسلام مسلمون = قرآن سنة ، مجد الاسلام القديم ، سلفه الصالحون ، تعلم تعليم ، كتب قديمة كتب جديدة ، وما يشاكل ذلك مما يظهر منه أن الداعين الى العلم أو المنبهين الى الاخذ بأصول الدين الاسلامي كثيرون ، ولا نرى مع ذلك من أغلب المسلمين الا آذانا صما وأعينا عميا ، وصدا عما يدعو اليه هؤلاء ؟

ويمكنني أن أقول له : ان الصادق في هؤلاء ليس بكثير عده ، والجمهور منهم قلما يخلص قصده ، وما تجد أكثرهم الا متجرين بهذه الكلمات ، لكسب بعض دريهمات ، ويظهر لك ذلك من أنهم يلفظون هذا الاسماء وقلما يدرسون شيئا من مدلولاتها ليقفوا على الحقيقة منه ، وانما يلقف بعضهم عن بعض ظواهر كالزبد ، لا تمكث في الارض . وأما الصادقون على قلتهم فقد بدأ بعض الناس يسمعون ما يقولون ، ويطلبون الرشاد مما يعلمون خصوصا في أمر الدين والجمع بينه وبين مصالح الدنيا ، ولاسيما في بلاد الهند وبين مسلمي روسيا . ولكن الاصلاح ليس ريحا تهب فتمسح الارض من الشرق الى الغرب في وقت قريب فانتظر

قد يقول القائل : لم لم يكثر هؤلاء كثرتهم بين الاوربيين فيما مضى حتى يغلبوا الظالمين من أهل السياسة ويستميلوا العادلين منهم اليهم ، وينهضوا بالمسلمين من هذه الرقدة التي طال أمدها

عليهم ؟ ولم لا يزال أهل البصيرة منهم قليلين متفرقين يهمسون بالقول ولا يجهرون ، وليس للعلم فيهم دعاة عمليون ؟ أليس ذلك سبيلا لمؤاخذة الاسلام وحجة عليه ؟ ! وأقول له : ان حظ المسلمين لا يصح أن يكون أسعد من حظ مقلديهم ، بل المنتظر أن يكون أتعس ، وقد أقامت المسيحية ما يزيد على الف سنة قبل أن يظهر فيها العلم أو تنشأ الحرية الشخصية ، أو تسري فيها الحركة العلمية ، الى مافيه صلاح الجمعية الانسانية ، مع توالي المنبهات ، وتواصل الصدمات اثر الصدمات ، ولم يمض على المسلمين من يوم استحكمت فيهم البدعة وأطبقت عليهم ظلم المحدثات ، ودخلوا جحر الضب الذي دخله من كان قبلهم الا أقل من ثمانمائة سنة ، فلم يمض عليهم وهم في بدعهم الجديد ذلك الزمن الذي قد يكون عمرا لمثل هذه الحالة ثم تقضي نحبها في آخره . وما أظن ان يمر على المسلمين مثل تلك المدة قبل أن يبلغوا من صلاح الدين والدنيا ماهم أهل له

الفرق بين التعصبين :

وعلى كل حال لايجوز في شريعة الانصاف ان يذكر المسلمون في جانب جمهور المسيحيين اذا ذكر الغلو في التعصب الديني فضلا عن أن يقال ان المسلمين أشد افراطا فيه . والشاهد يدلنا على انه قد يكون للمسلمين في التعصب ألفاظ وكلمات ، ولكن الذي

يكون من جمهور المسيحيين انما هو أعمال وضربات في المعاملات، وما على طالب الحقيقة الا أن يسيح بفكره فى المستعمرات الهولاندية في الشرق . ومثل مملكة الترنسفال قبل سقوطها و بلاد الناتال في الجنوب، ثم يرجع الى بعض بلاد الروسيا فى الشمال من قبل عشرين سنة ثم يرجع الى الجزائر وما يليها في جهه الغرب ، ليعلم كيف تكون الشدة في المعاملة مع غير أهل المذاهب المسيحية ، وكيف يبلغ التعصب من أهله حداً تنظر اليهم فيه الانسانية شزراً ، ولا تقبل لهم فيه المدنية عذرا ،

ما على الباحث الا أن ينظر فيما يكتبه الكتاب الفرنسيون ليعلم أنهم في حيرة من أمرهم مع المسلمين . يريدون أن تكون لحكومتهم طمأنينة فيما ملكت من بلاد المسلمين ولكن حكومتهم لا تجد السبيل اليها مع ما اتخذته قاعدة لعملها وهو الشدة والافراط في القسوة على المسلمين خاصة وحدهم دون سواهم، وأرباب الاقلام يبحثون عن تلك الطمأنينة مع المحافظة على تلك القسوة ، ويأبى الله أن يعثرهم على ما يبحثون عنه، لانهم يطلبون الجمع بين الضدين في موضوع واحد وهو محال كما يقرره فلاسفتهم

﴿ رأي هانوتو الاخير في معاملة المسلمين ﴾

موسيو ها نوتو أطلق لقلمه من سنوات أن يجري فى البحث عن طريقة حكم للمسلمين، وقاعدة لمعاملتهم في البلاد التي يحكمها الفرنسيون، وجاء في فصول مقاله بما لا يزال يذكره القراء . ثم بعد ان قتل المسألة علما ثلاث سنين ، ورأى سوء تأثير قوله في المسلمين، رجع الى موضوع البحث هذه السنة بلسان غير الذي كان ينطق به ،ورأي غير الذي كان يصدر عنه . واني ذاكر ملخص ما نقلته الجرائد من خطابه الذي ألقاه فى المجمع الجغرافي في شهر مارس من هذه السنة (١٩٠٢ م) متعلقا بأفريقيا وأقتصر منه على ما يتعلق بما نحن فيه وهو بالمعنى :

« ان القواعد الجديدة التي يجب ان يكون عليها العمل في أفريقية هي مخالفة للقواعد القديمة التي كانت تجري عليها السياسة الاستعمارية فيما مضى من الزمان » (أي قبل ساعة وقوف الخطيب لا لقاء خطابه) ثم بين هذه القواعد الجديدة التي يعامل بها المحكومون فقال انها الامن والسلم ثم قال « اننا مدينون لهم بالعدل والسلم كما اننا مدينون لهم بالتساهل الديني ، ولست أشير الى هذا الموضوع الخطير الذي له علاقة بكل ما يثير النفس البشرية الا اشارة خفيفة فأقول : ان التمدن الاوربي يجد في طريقه في أفريقيا

لاسيما في شمالها ذلك الدين القديم العظيم الذي هو دين الاسلام ، والذي هو في هذه الجهات (شمال أفريقية) أكثر نشاطا منه في غيرها . وهذا الدين يدعو الى إله واحد ويجعل الايمان بالتوحيد مصدرا لكل الفضائل الذاتية والاجتماعية ، ويستولي على المؤمن استيلاء شديدا فلا يعود يقدر على التفلت منه . فمن المفروض علينا التساهل في هذا الشأن ، بل ليس التساهل بكاف وحده فمن الواجب أن ندرس هذا الدين ونبذل جهدنا في فهمه . وعلينا أن نتخذ الكلمة الاسلامية « لا إكراه في الدين » شعارا لانخرج عن حدود معناها . وان نحترم الدين الاسلامي ونحميه من كل طاريء سوء . ولا بأس بذكر كلمة للامير عبد القادر الجزائري في هذا المقام وهي : ان أصحاب الاديان الثلاثة يشبهون ثلاثة اخوة من ثلاث أمهات » انتهى محصل كلام هانوتو

قبل الكلام عليه أسأل القارىء هل سمع مثل هذه الكلمة ممن يماثل الامير عبد القادر في نسبه الى صاحب الرسالة ومقامه في أهل دينه ومكانته من سلامة العقيدة في مذهبه ؟ أو سمع مايقرب منها ممن لا يدانيه من أهل الملل الاخرى ؟

ترى هانوتو يرشد أهله الى اتخاذ سبيل جديدة في سياسة المسلمين وهذا الجديد هو السلم والامن والتساهل مع المسلمين في أن يستمروا مسلمين ، واحترام حقوقهم ، وتركهم يعملون بدينهم .

وعد هذا مبدءا جديدا لم يسبق الجري على مثله . وهل تجيب الحكومة الفرنسية طلبه ؟ مسألة فيها نظر . فهل يليق بمنصف ان يذكر المسلم اذا ذكر التعصب ما دام في الكون مثل هذه الدرجة منه ؟

﴿ سياسة الانجليز في التسامح ﴾

نعم نحن لا ننكر أن بين الامم الاوربية أمة تعرف كيف تحكم من ليس على دينها، وتعرف كيف تحترم عقائد من تسوسهم وعوائدهم، وهي الامة الانكليزية ، فهي وحدها الامة المسيحية التي تقدر التسامح حق قدره، ولا يصعب علينا أن نقول : ان منشأ ذلك أن أمراءها في الحروب الصليبية وقواد جيشها كانوا من أشد الصليبيين علاقة بسلطان المسلمين وأمراء جيشه . وقد امتاز الانكليز في ذلك الزمن المظلم بدرس عقائد المسلمين وعاداتهم ، فحملوا من ذلك شيئا كثيرا الى بلادهم ، ولم تحجبهم غشاوة التعصب عن إبصار ضوء الحق، وظهر أثر ذلك في كثير من كتابهم مثل ولترسكوت وشيل وغيرهما قبل أن يظهر في أقلام الكاتبين من غير الانكليز بأزمان طويلة. فلنا أن نقول ولا نخشى لائما : ان هذه الخصلة الشريفة — خصلة اطلاق الحرية لاهل الدين يتمنعون باداء فرائضه مع احترام ما يحترمون — هي من أجل الخصال التي ورثها غير المسلمين عن المسلمين،

وهل أجد من يأبى على القول بأن الاسلام السليم من البدع هو استاذ الانكليز وعنه أخذوا هذه الخلة ؟ الا ترى ان نظامهم في ذلك يقرب من نظام المسلمين يوم كانوا مسلمين يكتفون من الناس بالخضوع للقوانين واداء مايفرض عليهم من الضرائب، ثم يحفظون نظام العدل بينهم بقدر ما تسمح به السياسة لا يفرقون بين دين ودين ؟ (١) وهكذا كان حال المسلمين وان كان ذلك على قاعدة أبر وأرحم

﴿ خاتمة ﴾

فان قال قائل أليس لهذا المقال من آخر ؟ أليس في طول الكلام مجلبة الملل ، وترويج الكسل ، ؟ قلت إني أوجه كلامي هذا الى أهل النهم الى الفهم ، وأرباب الشره الى المعرفة ، ولا أظن هؤلاء الا طالبين ما هو أوسع من هذا المقال وأطول منه اضعافا مضاعفة ، لان الموضوع جليل ، والكلام فيه مهما كثر قليل ، وأما القارىء

(١) نقول مع الاسف ان الانكليز طفقوا يرجعون القهقري في هذا الأمر وفي سائر المزايا التي فضلوا بها غيرهم من الاوربيين فقد منعوا المنار من السودان منذ بضع سنين وهم الآن يصادرونه في بلاد اخرى . ، ولهم اعمال من دون ذلك هم لها عاملون . . .
« ناشر الكتاب »

الملول ، فعقله مدخول ، وعزمه مفلول ، وفكره مغلول ، وهو قصير الهمة فيما يقصر وفيما يطول ، فلا ينظر اليه في الخطاب ، ولا يعتد به عند الحساب ، ومع ذلك فاناوقف عندهذا الحد وانتظر بتفصيل القول في مسألة أمراض الاسلام وآثار البدع والمحدثات فيه والعلل التي نشبت بالمسلمين بسببها فرصة أخرى

وقبل أن أترك القارىء أنبهه الى أن ما أجمل في هذه الفصول لم يقصد به الطعن في حال أحد من الناس ، ولا طائفة من الطوائف ، كما يعرفه القارىء نفسه من لباس المعاني وما يكسوها من الادب ، والتنزه عن كلمة تشم منها رائحة العيب على آخر ، وقد يعلم من هذه النزاهة ان هذا رأي طبخناه لنطعمه بأنفسنا ، وننفق منه على من تلزمنا نفقته من أهلنا ، ولم يكن يخطر ببالنا عند ما أجدنا طبخه ان نفيض منه على غيرنا ، لكن اذا عشا الساري الى ضوء نارنا ، وطلب القرى منا ، قاسمناه ما لدينا ، وعرضنا عليه أحر من نفس الحياة ، وأهنأ من خلق الاناة ، ان شاء الله ، اه

﴿ تم الكتاب ﴾

﴿ تنبيه ﴾ قد رأينا أن نزيد في هذه الطبعة رد الاستاذ الامام رحمه الله على مجلة الجامعة فيما كانت كتبته في فلسفة ابن رشد ونشر في المجلد الخامس من المنار مع مقدمة المنار له وهو ما تراه فيما يلي

﴿ الفيلسوف أبو الوليد محمد بن رشد ﴾

﴿ قاضي القضاة فى الاندلس ﴾ (*

هذا الفيلسوف أشهر فلاسفة المسلمين، وأكبر أساتذة أوربا في العلم والفلسفة. لان فلسفته انتقلت من الاندلس (اسبانيا) الى سائر بلاد أوربا فكانت مبدأ نهضة الاوربيين الحاضرة. ولد سنة ٥٢٠ في قرطبة. وتوفي سنة ٥٩٥ في بلاد المغرب

وقد نشرت مجلة الجامعة الغراء تاريخه، وتكلمت عن فلسفته، واستطردت الى مسائل أخرى كمذهب المتكلمين في الوجود والمقابلة بين الاسلام والنصرانية في اضطهاد العلم والفلسفة وعدمه. وقد وقع في تلك الترجمة غلط في هذه المسائل. والانسان دائما عرضة للخطأ والغلط فيما تعلمه وأتقنه. فكيف يكون حاله فيما لم يتعلمه بالتلقي عن أهله اذا تكلم أو كتب فيه ؟. وان صاحب الجامعة الفاضل لم يتعلم علم الكلام الذي هو فلسفة العقائد الاسلامية لانه ليس مسلما، ولا فلسفة اليونانيين لانها قد نسخت بالفلسفة العصرية، فلا شك عندنا انه لم يتعمد تكفير القاضي ابن رشد ولا نسبة أئمة المسلمين في العقائد الى انكار ارتباط الاسباب بالمسببات. ولكن بعض الذين قرأوا تلك الترجمة في مجلته أساؤا الظن به، واحتموا عليه

(*) منقول من الجزء العاشر من المجلد الخامس

ورغبوا الينا في الرد عليه ، لان من وظيفة المنار الدفاع عن العقائد الاسلامية وعن أئمة المسلمين

وطلب بعضهم مثل ذلك من بعض أساتذتنا الاعلام ، الذين يرجع اليهم اذا اعتكر من ليل الشبهات الظلام. ولما رأينا ذلك الاستاذ وعد الطالبين بأن يكتب في بيان حقيقة تلك المسائل التي وقع فيها الخطأ أمسكنا نحن عن الكتابة، لانه هو الاجدر بالفصل بين الحق والباطل، والذي اذا قال لم يترك مجالا لقائل، وقد تفضل علينا وعلى الجامعة بما كتب فننشر في هذا الجزء مقالته في فلسفة ابن رشد ومذهب المتكلمين وسننشر في الاجزاء التالية مقالاته في « الاضطهاد في النصرانية والاسلام » (*

تمهيد لمقالة الاستاذ الحكيم :

لا بد لفهم قراء المنار هذه المقالة من ذكر ماقالته الجامعة في فلسفة ابن رشد لان كاتب المقالة لم يذكر فيها الا مواضع النقد قالت الجامعة :

﴿ المادة وخلق العالم ﴾

« ان اعظم المسائل التي شغلت حكيم قرطبة مسألة أصل

*) هو الذى سميناه « الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية »

الكائنات وهو يرى في ذلك رأي اريسطو فيقول : ان كل فعل يفضي الى خلق شيء انما هو عبارة عن حركة والحركة تقتضي شيئا لتحركه ويتم فيه بواسطتها فعل الخلق وهذا الشيء هو في رأيه المادة الاصلية التي صنعت الكائنات منها . ولكن ماهي هذه المادة؟ هي شيء قابل للانفعال ولا حد له ولا اسم ولا وصف . بل هي ضرب من الافتراض لابد منه ولا غنى عنه . وبناء عليه يكون كل جسم أبدياً بسبب مادته، أي إنه لا يتلاشى أبداً لان مادته لا تتلاشى ابداً وكل أمر يمكن انتقاله من حيز القوة الى حيز الفعل لا بد له من هذا الانتقال والاحدث فراغ ووقوف في الكون ، وعلى ذلك تكون الحركة مستمرة في العالم ولولا هذه الحركة المستمرة لما حدثت التحولات المتتالية الواجبة لخلق العالم بل لما حدث شيء قط. وبناء عليه فالعامل الاول الذي هو مصدر القوة والفعل (أي الخالق سبحانه وتعالى) يكون غير مختار في فعله لان الحرية والاختيار يقتضيان كونه محدثا والخالق تنزه عن ان يكون حديثاً

﴿ اتصال الكون بالخالق ﴾

«هذا فيما يختص بخلق العالم وهو مذهب قريب جداً من مذاهب الماديين كما ترى ، ولكن كيف يستولي العامل الاول على الكون ويدبره

« لابن رشد في ذلك تمثيل يدل على حقيقة مذهبه في هذه المسألة الخطيرة ، فانه يشبه حكومة الكون أي تدبيره بحكومة المدينة فانه كما ان كل شؤون المدينة تتفرق وتتجه الى نقطة واحدة وهي نقطة الحاكم العام فيها . فيكون هذا الحاكم مصدراً لكل شؤون الحكم ، لو لم تكن له يد في كل شأن من هذه الشؤون — كذلك الخالق في الاكوان فانه نقطة دائرتها ، ومصدر القوات التي تدبرها . وان لم يكن له دخل مباشرة في كل جزء من هذه القوات ، فبناء على ذلك لا يكون للكون « اتصال » بالخالق مباشرة ، وانما هذا الاتصال يكون للعقل الاول وحده . وهذا العقل الاول هو عبارة عن المصدر الذي تصدر عنه القوة للكواكب ، وعلى ذلك فالسماء في رأي فيلسوف قرطبة كون حي بل أشرف الاحياء والكائنات ، وهي مؤلفة في رأيه من عدة دوائر يعتبرها أعضاء أصلية للحياة . والنجوم والكواكب تدور في هذه الدوائر ، أما العقل الاول الذي منه قوتها وحياتها فهو في قلب هذه الدوائر ، ولكل دائرة منها عقل أي قوة تعرف بها طريقها ، كما أن للانسان عقلا يعرف به طريقه . وهذه العقول الكثيرة المرتبطة بعضها ببعض والتي يلي بعضها بعضاً محكومة بعضها ببعض انما هي عبارة عن سلسلة من مصادر القوة التي تحدث الحركة من الطبقة الاولى في السماء الى أرضنا هذه ، وهي عالمة بنفسها وبما يجري في الدوائر السفلى البعيدة عنها ، وبناء على ذلك

يكون للعقل الاول الذي هو مصدر كل هـذه الحركات علم بكل مايحدث في العالم.

﴿ طريق الاتصال ﴾

« وان قيل ماهي علاقة الانسان بالخالق ؟ فالجواب عن ذلك يأخذه ابن رشد أيضا عن ارسطو من الفصـل الثالث من كتابه « النفس » وخلاصة ذلك ان في الـكون عقلا فاعلا ، وعقلا منفعلا. فالعقل الفاعل هو عقل عام مستقل عن جسم الانسان وغير قابل للامتزاج بالمادة. وأما العقل المنفعل فهو عقل خاص قابل للفناء والتلاشي مثل باقي قوى النفس. وانما يقع العلم والمعرفة باتحاد هذين العقلين ، ذلك أن العقل المنفعل يميل دائما للاتحاد بالعقل الفاعل كما أن القوة تقتضي مادة تنفذ فيها، والمادة تقتضي شكلا توضع به. وأول نتيجة تحصل من هذا الاتحاد تدعى العقل المكتسب ولكن قد تتحد النفس البشرية بالعقل العام اتحادا أشد من هذا فيكون هذا الاتحاد عبارة عن امتزاجها جد الامتزاج بالعقل القديم الازلي ولا يتم هذا الاتحاد بالعقل الا كتسابي الذي تقدم ذكره فانمـا وظيفة العقل الا كتسابي ايصاله الى حرم الخـالق الازلي دون أن يدغمه به ، وأما ادغامه واتصاله به فذلك أمر لا يتم الا بطريق «العلم».

فالعلم إذاً هو سبب « الاتصال » بين الخالق والمخلوق ولا طريق غير هذا الطريق. ومتى اتصل الانسان بالله صار مثله عارفا بكل شيء في الكون ولم يعد يفته شيء، ولكن كيف يتصل الانسان بالله؟

« يتصل به بان ينقطع الى الدرس والبحث والتنقيب، ويخرق بنظره حجب الاسرار التي تكتنف الكون فانه متى خرق هذا الحجاب ووقف على كنه الامور وجد نفسه وجها لوجه أمام الحقيقة الابدية

« أما المتصوفة فانهم يقولون: ان هذا « الاتصال » يتم بواسطة الصلاة والتأمل والتجرد وليس العلم ضروريا له

« وبناء على ذلك تكون فلسفة صاحب الترجمة عبارة عن مذهب مادي قاعدته العلم . والكون في رأيه كما مر بك انما صنع بقوة مبادىء قديمة مستقلة محكومة بعضها ببعض وكلها مرتبطة ارتباطا مبهما بقوة عليا، ومن هذه المبادىء شيء يستولي على العالم ويضع فيه العقل فهو عقل الانسانية . وهذا الشيء الذي يسميه عقلا أيضا هو عقل ثابت لا يتغير، أي إنه لا يتقدم ولا يتأخر، لا يزيد ولا ينقص . والناس يشتركون فيه و يستمدون منه بكميات متباينة . على أن من كان منهم أكثر استمداداً منه كان أقرب الى الكمال والسعادة »

﴿ الخلود ﴾

ثم تكلمت الجامعة بعد ما تقدم عن رأي ابن رشد في خلود النفس فقالت بعد كلام ما نصه : « قال إن العقل الفاعل العام الذي تقدم ذكره من صفاته انه مستقل ومنفصل عن المادة وغيرها غير قابل للفناء والملاشاة، والعقل الخاص المنفعل من صفاته الفناء مع جسم الانسان ، و بناء عليه يكون العقل العام الفاعل خالدا ، والعقل المنفعل فانيا ، ولكن ماهو العقل الفاعل العام الذي هو خالد في رأي ابن رشد ؟ ان هذا العقل الخالد هو العقل المشترك بين الانسانية فالانسانية اذاً هي خالدة وحدها دون سواها ، و بناء على ذلك لا يكون بعد الموت حياة فردية ولا شيء مما يقوله العامة عن الحياة الثانية » أه كلام فرح افندي انطون في الجامعة

﴿ دفع وهم عن فلسفة ابن رشد والمتكلمين ﴾

(لاستاذ حكيم ، وفليسوف عليم) (١)

قرأت ما نشرت الجامعة من ترجمة ابن رشد . مررت على

(١) هو الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده لم نصرح باسمه وقتئذ ولكن عرفه كل من قرأ الرد

ماننقلت من آراء المتكلمين وآرائه بغير تدقيق لانني أعرف آراء الفريقين من قبل، ولم يكن لي قصد الى النقد، وانما أريد أن استفيد جديدا . لهذا لم يقف نظري لاول وهلة الا على ما حوته تلك الجملة (الاضطهاد في النصرانية والاسلام) قرأتها بتر و وانتهيت منها الى حكم من الجامعة يخالف ما أعتقد ولا يلتئم مع ما أعرف و يعرف العارفون من الشواهد التار يخية . عنـد ذلك تحر كت نفسي الى كتابة سطور ، أشير فيها الى كشف مستور ، أو اعادة ذكر مشهور على اسماع الجمهور

لا قاني بعض قراء تلك الترجمة فرأيت الاثر في نفسه أشد ، ولسانه في العتب أحد . وذكر أشياء في غير هذا الفصل من الترجمة ولفتني الى اعادة النظر فيها . رجعت الى الترجمة فوجدت فيها موضعين آخرين يطلبان مني الـكلام عليهما ، و بأن أحادث الجامعة فيهما ، لو كانت منزلة الجامعة من نفسي منزلة غيرها من المجلات التي لا يعنى كاتبوها الا بنقل ما يقع تحت أنظارهم ، أو تحبير ما يعبر عن أهوائهم وأفـكارهم ، من دون عناية بتقرير الحقيقة ولا رعاية لمعتقدات القراء — لوجدت من شواغل عملي ما يصرفني عن ذكر ما عرض فيها ، لكنها من المجلات التي لو أهملت مباحثها من إنعام النظر وجعلتها في جانب عما تستحقه من النقـد لبخستها حقها ، ونبوت بها عن موضعها ،

لهذا رأيت أن أذكر لها ما رأيت في ذينك الموضعين وأبين حقيقة الامر في الثالث . أما الموضعان فهما (فلسفة المتكلمين وآراؤهم في الوجود) و (فلسفة ابن رشد وآراؤه في خلق العالم واتصال الكون بالخالق وطريق اتصال الانسان به والخلود) وهما موضوع كلامي اليوم

﴿ فلسفة المتكلمين وآراؤهم في الوجود ﴾

قالت الجامعة : « فلسفة المتكلمين هذه (أى في وجود العالم) مبنية على أمرين ، الاول حدوث المادة في الكون أي وجودها بخلق خالق ، والثاني وجود خالق مطلق التصرف في الكون ومنفصل عنه ومدبر له ، وبما أن الخالق مطلق التصرف في كونه فلا تسأل اذا عن السبب اذا حدث في الكون شيء لان الخالق نفسه هو السبب وليس من سبب سواه . اذا فلا يلزم عن ذلك قطعيا أن يكون بين حوادث الكون روابط وعلائق كأن ينتج بعضها عن بعض لان هذه الحوادث تحدث بأمر الخالق وحده . وفي الامكان ان يكون العالم بصورة غير الصورة المصور بها الآن وذلك بقدرة هذا الخالق » ثم ذكرت في الجملة التي تلي ما تقدم أن أن هذه فوضى وأن روحاً جديداً أخذ يدخل شيئاً من النظام فيها (١)

(١) ذكرت الجامعة الغراء ان منبع هذا الروح النظامي في مجلة المنار واستشهدت لذلك بالتفسير الذي تقتبسه من دروس الاستاذ الامام كبير رجال النهضة الاسلامية الحاضرة

حدوث المادة عند المتكلمين ليس معناه أن تكون بخلق خالق فان الخلق في اصطلاحهم هو الايجاد وكون المادة صادرة عن موجد لم يختلف فيه المتكلم والفليسوف الالهي . فأرسطو يقول ان المادة قد استمادت وجودها من موجدها وهو الواجب . وواسطة فيض الوجود عليها هو العقل الفعال على ماسيأتي بيانه وان كان لا أول لوجودها . وانما حدوث المادة عند المتكلمين هو وجود الاجسام وعوارضها بعد أن لم تكن موجودة بحيث يفرض لوجودها بداية زمانية تنتهي اليها سلسلتها من جانب الماضي .ولا يجوز أن يوصف بالازلية الا الله وحده وصفاته عند القائلين بأنها وجودية ، وقبل هذه البداية التي لا يمكن تحديدها لم يكن وجود سوى وجود خالق الكون،ثم إنه أراد ايجاد الكون فأوجده من العدم البحت . هذا هو بناء مذهب المتكلمين وهو مذهب أهل النظر من المسيحيين واليهود أيضا فلم يخالف فيه ملي من أهل الملل الثلاث

أما كون هذا المذهب وحده هو الذي يصح أخذه من القرآن أو أنه يجوز أن يتفق مع معاني القرآن رأي آخر بل هو الذي يظهر منه فذلك بحث آخر لسنا بصدده الا ن فان كلامنا في تصوير مذهب المتكلمين .

الاصل الثاني — وهو وجود خالق مطلق التصرف — لازم للاصل الاول،لان هذا العالم اذا كان موجوداً بفعل موجد.فموجده

هو خالقه وهو مطلق التصرف بمعنى أنه يختار ما يخلق على الوجه الذي يخلق . والمتكلمون وان اتفقوا على أن خالق العالم مختار انقسموا الى فريقين عظيمين، فالقدرية منهم ويسمون بالمعتزلة أيضا قالوا: ان الخالق وضع للكون نظاما تنطبق أصوله على مصالح المخلوقين واودع في المخلوقين قوى أو قدر تصدر عنها آثارها بطريق التوليد والسببية، أو بطريق الارادة والاختيار . فهذا فريق من المتكلمين لا يخالف الفلاسفة في قولهم بلزوم الآثار لمصادرها ، أو تأثير قدر المخلوقين في أفعالهم . وقد بقي من أهل هذا المذهب الى اليوم طائفة الشيعة الامامية والزيدية فانهم لا يخالفون المعتزلة في هذه الاصول . فاذا حدث في الكون حادث سأل صاحب هذا المذهب عن سببه المباشر له، وان كانت جميع الاسباب تنتهي الى مصدرها الاول وهو الخالق كما يسأل الفيلسوف بلا فرق .

والفريق الآخر الذي عنته الجامعة وهو الذي يرى اسناد الآثار الى الخالق مباشرة لم يقطع العلاقة بين الاسباب الظاهرة ومسبباتها، بل قال ان الله يصدر وجود المسبب عند وجود السبب . فلا يقال ان الاكل (مثلا) هو الذي يحدث الشبع بل الشبع شيء يحدثه الله عند الاكل ولكنه لا يحدثه عند الخوى، الا اذا أراد أن يخرق النظام الذي جرت به سنته لامر عظيم يريد توجيه النفوس اليه . وحمل هذا الفريق على هذا القول انكاره نسبة الايجاد ومنح الوجود

الى شيء سوى واجب الوجود . وقالوا في الافعال الاختيارية: ان الله يوجدها عند تعلق كسب العبد بها ولهم في تصوير معنى الكسب كلام طويل لا يليق بهذا المقال استيفاؤه. وقالوا ان الاسباب والآلات لا بد منها في صدور الاثر، الا أن الذى يعطيه الوجود عند استكمالها هو الخالق . ولهذا اتفق جميع المتكلمين على أن التكليف بالاحكام الشرعية يعتمد التمكن من الاتيان بالمكلف به من حيث حال المكلف، وصرحوا بأنه لم يقع تكليف بشيء الا اذا تيسرت أسبابه وارتفعت الموانع منه . غير أنهم يلقبون هذه الاسباب بالعادية لانه ليس من الواجب على الخالق أن يلتزمها ، مع اعتقادهم بأنه قررها وجرت سنته بها . ولقبوا ما يحدث في العالم مخالفا لها بخارق العادة . وليس كل غريب عندهم خارقا للعادة، بل الخارق هو ما لا يدخل في مكنة قوة حادثة ولا يقدر على احداثه الا القادر على مخالفة النظام الذي سنه وهو الله

هذا الفريق من المتكلمين يستند في اثبات صفة العلم لله تعالى الى ما في هذا العالم من النظام والى ما حواه ذلك النظام من الاسرار والحكم . وهل يتأتى هذا الاستناد منهم ان لم يقولوا بوجود العلاقة بين الاسباب ومسبباتها ؟ كان من هذا الفريق أئمة تناول بحثهم كثيرا من الفنون كالطب وعلوم المواليد الثلاث ـ الحيوان والنبات والمعدن ـ منهم الائمة الرازيون كفخر الدين الرازي وأبي بكر الرازي ومحمود

الرازي وأمثالهم . ومنهم الامام أبو بكر الباقلاني . وكيف يتيسر لقائل انه لا علاقة بين الاسباب والمسببات ان يبرع في فنون بناؤها على الارتباط بين الآثار ومايقارنها في العادة مما هو مصدر لها في بادىء النظر.

فاذا حدث في الكون حادث سأل صاحب هذا المذهب عن سببه الذي جرت سنة الله بأن يكون معه . وان شئت قلت سأل عن السبب الذي أصدر الله وجوده عنده . وهل يمكن أن يقول المتكلم إنه لا علاقة بين الولد وبين وجود والديه، او بين جودة العمل وعلم العامل، أو بين غزارة الثمر، وخدمة الشجر ؟ هذا شيء لم يقل به قائل منهم قط والا لما قرأ واحد منهم كتابا ولا خط في صحيفة سطرا لانه لا علاقة بين المطالعة والفهم ولا بين التحرير والافهام

فان شئت أن تقول انه مذهب مع ذلك غامض يكد الذهن في فهمه فلك أن تقول، وأن تنعم النظر حتى تفهم مبانيه وأصوله وأن تناقش بالدليل الدليل . وعلى الله قصد السبيل .

القول بنفي الرابطة بين الاسباب ومسبباتها جدير بأهل دين ورد في كتابه ان الايمان وحده كاف في ان يكون للمؤمن أن يقول للجبل تحول عن مكانك فيتحول الجبل (١) يليق بأهل دين

(١) المنار — يشير الى ماجاء في انجيل لوقا من الباب ١١ : ٢٣ لأني الحق أقول لكم ان من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر ولا يشك في قلبه بل يؤمن ان مايقوله يكون فمهما قال يكون له ٢٤ لذلك أقول لكم كلما تطلبونه حينما تصلون فامنوا ان تنالوه فيكون لكم»

بعد الصلاة وحدها اذا أخلص المصلي فيها كافية في إقداره على تغيير سير الكواكب، وقلب نظام العالم العنصري . وليس هذا الدين هو دين الاسلام . دين الاسلام هو الذي جاء في كتابه (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم — الآية — وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن ر باط الخيل) الخ (سنة الله في الذين خلوا من ل ولن تجد لسنة الله تبديلا) وأمثالها (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار) الآيات . فلا يمكن لاهل هذا الدين وهو هو أن يقطعوا كل علاقة بين الاسباب في هذا العالم والمسببات . ولهم أن يتيهوا على أرباب ذلك الدين الآخر بأن دينهم لم يوضع أساسه على دعث من الخوارق لا يلبث أن يخسف بالسالك فيه اذا سال عليه سيل الدليل ، وانما وضع على مستقر من الحقائق لا يتزلزل بالقائم عليه مهما عظم القال والقيل ، وليس من الممكن لمسلم أن يذهب الى ارتفاع مابين حوادث الكون من الترتيب في السببية والمسببية الا اذا كفر بدينه قبل ان يكفر بعقله

نعم طرأ فساد على عقائد بعض المنتسبين الى أئمة ذلك المذهب وأساؤا الظن بالقدر وتظاهروا بترك الاسباب في أقوالهم ، وان كانوا أشد الناس تمسكا بها في رذائل أعمالهم ، وتعلقوا من الخوارق بحبل واهن ميلا الى أهواء من جاورهم من الملل . فظن الناظرون

في قذائف أفواههم، أن هذه الاوهام مما بني عليه اعتقاد اسلافهم، فلا يغترن بعد ذلك مغتر بما يظن أولئك الناظرون، ولا بما يتوهمه هؤلاء الواهمون، (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) .

هذا ما يتعلق برأي الجامعة في مذهب المتكلمين أو فلسفتهم وننتقل الآن الى روايتها مذهب الفيلسوف ورأيها فيه

﴿فلسفة ابن رشد و رأيه في المادة وخلق العالم﴾

المادة وخلق العالم

قالت الجامعة : ان المادة « ضرب من الافتراض لا بد منه » الافتراض يراد به عند الاطلاق الفرض وهو في اصطلاح الفلاسفة مالا وجود له، والمادة عندهم موجودة كما قالت الجامعة فيما قبل ذلك التعريف وفيما بعده

ثم قالت : « وبناء عليه فالعامل الاول الذي هو مصدر القوة والفعل (أي الخالق سبحانه وتعالى) يكون غير مختار في فعله لان الحرية والاختيار يقتضيان كونه محدثا والخالق ينزه عن أن يكون حديثا » . وقالت بعد هذا بسطرين : « وهو (أي مذهب ابن رشد) مذهب قريب جدا من مذاهب الماديين كما ترى » ثم ذكرت ان الفيلسوف يشبه حكومة الكون بحكومة المدينة وأن المباشر للتصرف في الكون هو العقل الاول وحده وأن السماء كون حي

مركب من عدة دوائر والعقل الاول في قلب هذه الدوائر ولكل دائرة عقل أي قوة تعرف بها طريقها » الخ

أما مسألة نفي الاختيار فقد ذكرت على ابهامها وأدى ذكرها كذلك إلى استنتاج ان مذهب ابن رشد قريب من مذهب الماديين وليس الامر في حقيقته كذلك

يعلم كل ناظر في مذاهب فلاسفة اليونان أنهم كانوا فريقين إلهيين وماديين، والاولون فريقان مشاؤن وإشراقيون، واشتهر أتباع ارسطو باسم المشائين، واتباع أفلاطون باسم الاشراقيين

وأول مميز للالهيين عن الماديين ان الاولين يقولون بوجود واجب بريء من المادة والماديات ،و بوجود عقول مجردة عن المادة وغواشيها، وبأن للواجب علما بذاته وبجميع مايصدر عنه وعن آثاره، وان للعقول المجردة عقلا وعلماً بذواتها وبمبدئها وبما يصدر عنها . والماديون لا يقولون بشيء من ذلك البتة. فالتقريب بينهما تقريب بين النقيضين. وابن رشد من مقرري مذهب ارسطو فهو من الآلهيين!

وتشبيه الفيلسوف لتدبير الكون بتدبير المدينة اكبر دليل على مفارقة الماديين كما يفارق المجرد المادة . وقد شرطوا في هذا التشبيه أن المدبر خارج عن المدبَّر مفارق له ، منزه عن مخالطته

وأما العقل الاول فليس كما تقول الجامعة . فان العقل الاول جوهر مجرد عن المادة وهو أول صادر عن الواجب وقد صدر عنه

الفلك التاسع المسمى عندهم بالفلك الاطلس ، ونفس لذلك الفلك تدبر حركاته الجزئية، وعقل آخر هو العقل الثاني، وعن هذا الثاني صدر الفلك الثامن المسمى عندهم بالعقل الفعال أو العقل الفياض، وعن هذا العقل صدرت المادة العنصرية واليه يرجع ما يحدث في عالمها . ولا يكون العقل الاول ولا غيره من العقول في قلب تلك الدوائر عند أحد من هؤلاء الفلاسفة الالهيين بل هو مفارق لها، كما أن نفوسها جواهر مفارقة أيضا، ولها تعلق باجسادها كتعلق أنفسنا بأبداننا على ما سيأتي بيانه

والذي حمل الالهيين على ذلك مبالغتهم في تنزيه الواجب وقولهم: انه واحد من جميع الوجوه ، وزعمهم ان الواحد من كل وجه لا يصدر عنه الا الواحد، فيلزم ان لا يصدر عن الواجب الا واحد وهو العقل الاول . ولما تعددت وجوه العقل في ذاته والنسبة بينه وبين مصدره وعقله لذاته وعقله لموجده صح أن يصدر عنه متعدد . ولهم في الاستدلال على حياة الافلاك مقدمات لا حاجة الى ذكرها لان الكلام في تصوير مذهبهم لا في تقريره أو إبطاله

فالعقول عند الفيلسوف ليست مخالطة للمادة ولا يغشاها شيء من ظلماتها، وليس العقل الاول بمدبر الكون وانما هو مصدر الفلك الاطلس، ومفيض نفسه عليه وخزانة معقولاته . وهكذا الامر في كل عقل مع الفلك الذي صدر عنه . وتدبير العالم العنصري وهو مادون

فلك القمر راجع الى العقل العاشر وهو العقل الفعال

قال الفلاسفة الالهيون : ولا يجوز أن تكون لافعال الله غايات واغراض تبعثه على اصدارها، وان مايصدر عنه انما يفيض بمحض الوجود المطلق عن غنى مطلق. وقد صرح ابن رشد في تهذيبه لالهيات ارسطو بذلك ، وهذا مبالغة منهم في نسبة الكمال الى الله، على ان مايصدر عنه انما يصدر عن علم ، فالذي ينفى عنه انما هوالاختيار بمعنى التردد بين الغايات ثم ترجيح احداها، واما الاختيار بمعنى ان الفعل صدر عن علم العالم بدون اكراه عليه فذلك لاينفيه احد منهم ، والمليون من متكلمين ولا هوتيين وان لم يصرحوا بذلك قالوا بما يؤول اليه والتزموه ، فقد ذهب جمهورهم والمعول على رأيه عند قومه منهم أن علم الله محيط بالكليات والجزئيات أزلا وأبداً. وقد تعلقت ارادته بتخصيص كل كائن بما هو عليه على حسب علمه ، وعلمه لازم لذاته أزلي بأزلية ذاته، وكل مايكون في الكون لا بد أن يقع على وفاق مع علمه الازلي جل شأنه فلا تردد عنده بين الغايات بل مايصدر عنه اليوم كان لابد أن يصدر عنه، والاسباب والمسببات وارتباط بعضها ببعض مما انتظم في علمه فهي تصدر عنه على حسب ترتيبها في العلم، وسواء كان هذا القول غامضا أوغير غامض، وسواء توجه عليه من النقد ما يصعب الجواب عنه اذا روعيت بقية الاصول أو لم يتوجه. كل ذلك لايدفع عنهم أنهم قالوا بنفي الاختيار بالمعنى

المعروف عند الناس، وان ثبت الاختيار بالمعنى الذي يليق بكمال الله تعالى ، فالفلاسفة وجمهور المتكلمين واللاهوتيين على وفاق في حقيقة المسألة وان اختلفت العبارات ، فابن رشد رحمه الله لم يخرج في آرائه عن الملليين، فلا يصح أن يكون مذهبه مذهب الماديين ولا قريبا منه

﴿ طريق الاتصال ﴾

يتوهم الناظر في هذا العنوان في الجامعة مع مراعاة الفصل الذي تقدمه فيها انه عنوان لرأي ابن رشد في طريق اتصال الكون بالخالق، فاذا استمر في قراءة ما بعد العنوان الى آخر الفصل علم أن المراد طريق اتصال الانسان وحده بخالقه وعثر في آخر البحث على هذه العبارة : « وبناء على ذلك تكون فلسفة صاحب الترجمة عبارة عن مذهب مادي قاعدته العلم » وأما مابين العنوان وهذه العبارة فهو مما لا يمكن ان يتحصل له معنى مفهوم في مذهب الفيلسوف ، واني ذاكر لك رأيه في اتصال الانسان بالله أي قربه منه وسعادته به وفي طريقة تكميله لنفسه حتى يستعد لذلك القرب وبذلك تعرف ان ماجاء في الجامعة ليس بالذي تصح نسبته اليه خصوصا بعد قولها انه أخذ مذهبه في ذلك عن ارسطو من الفصل الثالث من كتابه (النفس) وما قاله ارسطو في ذلك الكتاب معروف مشهور

أثبت ارسطو وتبعه ابن رشد وجل فلاسفة الاسلام أن نفس

الانسان التي هو بها انسان — وهي ما يلقبونها بالنفس الناطقة — جوهر مجرد عن المادة لا هو جسم ولا حال في جسم وانما له علاقة بالجسم يدبره و يصرفه، وشبهوا هذه العلاقة بعلاقة الملك بالمدينة وهو خارج عنها ولهذه النفس آلة في الجسم بها يكون التدبير

وقالوا ان انطباع المحسوسات والمعاني الجزئية في لحواس الظاهرة والباطنة على مافصلوه يعد النفس لقبول الكليات، ويهيؤها لتلقي المعقولات عن مفيضها عليها وهو العقل الفعال الذي سبق لنا ذكره

وجعلوا مراتب النفس في استحصالها كالها العلمي و بلوغها ذروته أربعا (الاولى) العقل الهيولاني وهو قوة استعداد النفس نحو المعقولات وتسميته عقلا تسمية مجازية (الثانية) العقل بالملكة وهي القوة التي تحصل للنفس عند حصول المعقولات الاولى مثل الجزء والكل ومثل الحكم بأن الاول أصغر من الثاني، ومثل النفي والاثبات والحكم بانهما لايجتمعان في محمول واحد لموضوع واحد، وكذلك كل ماخلص من محسوس وهو لايحتاج في تخليصه إلى فكر، والنفس تتهيأ بهذه القوة لاكتساب المعقولات الثانية إما بالفكر واما بالحدس، وليس الحدس هو الظن كما هو في المشهور بل هو سرعة انتقال النفس من المبادىء الى المطالب أو انتقال النفس من المعلومين الى الوسط الذى يصل بينهما ومن ذلك الى معلوم ثالث بلا تجشم نظر، ولذلك جعل مقابلا للفكر الذي هو النظر بعينه،

(الثالثة) قوة تسمى العقل المستفاد وهي ان تحصل المعقولات الثانية بالعقل متمثلة كالاولى مشاهدة في الذهن ، (الرابعة) قوة تسمى « العقل بالفعل » وهي مابه تتمكن النفس من استحضار المعقول المكتسب المفروغ منه متى شاءت من غير افتقار الى اكتساب

قالوا والذي يرقى بالنفس في هذه المراقي هو العقل الفعال وهو ذلك العقل العاشر المصرف للمادة العنصرية لا عقل الانسانية العام كما تقول الجامعة فان أرسطو وابن رشد لا يقولان بعقل يسمى عقل الانسانية العام بل كان ذلك من مزاعم أفلاطون التى عني أرسطو بابطالها، وتبعه ابن رشد وغيره في نفيها ، فالعقل الفعال هو الذي يخرج النفس من العقل الهيولاني الى العقل بالملكة، ومن العقل بالملكة الى العقل المستفاد ومنه الى العقل بالفعل

ولما كان العقل الفعال جوهرا عقليا بالفعل كانت المعقولات بأسرها حاصلة له بالفعل ، وأما نفوسنا فهي عقول بالقوة ولكنها اذا استعدت استعدادا خاصا للاتصال بذلك العقل أي بالاقبال عليه وتوجيه وجهتها نحوه ارتسم منه فيها الصور العقلية الخاصة بذلك الاستعداد الخاص لاحكام خاصة ، وادراك المعاني الجزئية بواسطة الحواس وحركة النفس في المعقولات الاولى والبحث والتجربة والدرس وما ينحو هذا النحو كل ذلك من محصلات الاستعداد لقبول المعقولات في الموضوعات التي كان الاستعداد فيها فاذا اعرضت

النفس عن العقل الفعال والتفتت الى جانب الحس أو الى صورة أخرى غير التي حصلت لها بذلك الاستعداد انمحى المتمثل الذي كان أولا ، كأن المرآة التي كان يحاذى بها جانب القدس ، قد أعرض بها عنه الى جانب الحس ، أو الى شيء آخر من الامور القدسية

قالوا وهذا الاتصال الذي يفيض به العقل الفعال على النفس ما استعدت له من المعقولات له علة ، وعلته قوة بعيدة هي العقل الهيولاني وقوة كاسبة هي العقل بالملكة ، وقوة تامة الاستعداد لها أن تقبل بالنفس جهة الاشراق متى شاءت بملكة متمكنة وهي المسماة بالعقل بالفعل

ثم إن الفيلسوف وأتباع مذهب أرسطو ذكروا آراء بعض الفلاسفة ممن لا يعتد بقولهم وفيها ما يشبه ما نسبته الجامعة لابن رشد . منها أن الجوهر العاقل اذا عقل صورة عقلية صار هو اياها . واستدلوا على استحالة هذا القول بأنه يلزم عليه أن تصير النفس جميع المعقولات التي تحصل لها وتصير المعقولات كلها معقولا واحدا ، بل يلزم عليه انعدام النفس ووجود ما عقلته أو استحالة النفس اليه وهو محال وخلاف الفرض. ونقلوا عن (فرفوريوس) أنه قال : ان النفس الناطقة اذا عقلت شيئا فانما تعقل ذلك الشيء باتصالها بالعقل الفعال ، وهو حق في رأيهم ، ولكنه قال : ان معنى اتصالها بالعقل الفعال أن تصير هي نفس العقل الفعال لا انها تصير العقل المستفاد . والعقل

الفعال يتصل نفسه بالنفس فيكون العقل المستفاد . وقد أبطلوا هذا القول بأنه يستلزم أن يكون العقل الفعال متجزئا قد يتصل منه شيء دون شيء — وهو مجرد لا يتجزأ — أو تتصل به النفس اتصالا واحدا تكون به النفس كاملة واصلة إلى كل معقول وهو ليس بحاصل في جميع الاحوال . وقالوا ان دعوى اتحاد شيء بشيء آخر على معنى استحالة الاول الى الثاني قضية شعرية غير معقولة فلا يصح النظر فيها . وأما استحالة النفس الى العقل الفعال فلم يقل به أحد

فقد عرفت من هذا ان اتصال النفس بالعقل الفعال ليس معناه الفناء فيه أو الاندغام كما عرفته الجامعة بل معناه ان ترتفع النفس بقواها عن ظلمة الطبيعة بما يكون لها من الاستعداد وتنجذب نحو العالم الاعلى ، فتشرق فيها المعلومات بمحاذاتها لمطلع ذلك النور الاجلى ، فهل مع هذا يصح أن ينسب الى الفيلسوف ماعده غير معقول؟؟

قال الفيلسوف وشيعته : ان النفس الناطقة التي هي موضوع ما للصورة المعقولة غير منطبعة في جسم تقوم به بل هي جوهر عاقل ذو آلة بالجسم فاذا استحال الجسم عن أن يكون آلة لها وحافظا للعلاقة معها بالموت لم يضر ذلك جوهرها بل تكون باقيـة بما هي مستفيدة الوجود من الجواهر العقلية . فالنفس بعد مفارقتها للبدن باقية على استقلالها لا تعدم شخصيتها بالفناء في شيء سواها لا عقل فعال ولا وجود واجب ، وهي تسعد بكمالها العلمي والادبي الذي

حصلته مدة تعلقها بالبدن . وجوز الفيلسوف أن تتعلق بعد فراقها للبدن بجسم آخر من عالم آخر تتخيل فيه ما هو لذة لها . وتشقى بجهلها ورداءة ملكاتها . فالنفس عند الفيلسوف باقية خالدة . خلودها خلود لشخصها المميز من كل شيء سواها سواء كان عقلا فعالا أو غيره

فهل بعد هذا يعد الفيلسوف ماديا ومذهبه مذهبا ماديا قاعدته العلم ؟ لا بل هو إلهي ومذهبه مذهب الهي قاعدته العلم قائل بخلود النفس وسعادتها وشقائها وعذابها ونعيمها كما رأيت

ما نقله فلاسفة أوربا عن ابن رشد

بقي علينا أن نشير الى ما نقله فلاسفة أوربا عن الفيلسوف الجليل ابن رشد في مبدإ العالم ومصدر وجوده . قالوا : لم يكن يعرف العلم والفلسفة عند الاوربيين الا في مدارس المسلمين في اسبانيا فكان يقصد تلك المدارس طلاب للعلم من كل ناحية . كان يجلس في درس الفيلسوف عدد عظيم . لم تأت نهاية القرن الثاني عشر (الميلادي) الا وقد انتشر بين المشتغلين بشيء من العلم رأي زعزع طمأنينة الكنيسة وأفزع القابضين على مفاتيح القلوب بذلك الوقت الواقفين على أبوابها يأذنون لما شاؤا من العقائد والافكار أن يدخل فيها ويطردون عنها ما شاؤا . ذلك الرأي الذي أخذ يتسرب الى القلوب رغم حجابها هو أن الكون أجمع يرجع في وجوده الى واحد هو حياة الكل

وهو روح يقوم به كل جزء منه . وقالوا : ان الذي نشر هذ المذهب بين الناس هم تلاميذ ابن رشد ففهم بعض علمائهم أن ابن رشد كان يقول ان مبدأ العالم هو أصل عرضت له صور العالم أو روح ظهر في مظاهر الكائنات كما يقول الصوفية أو نحو ذلك . واستتبع هذا رأيا آخر وهو ان كل صورة من صور الموجودات اذا بطلت فانما تعود الى اصلها وهو الوجود المطلق . وظن الواهم أن الارواح تعود بعد مفارقة الاجسام ، الى مشرقها العام، وتفقد امتيازها فيه. وذلك كله — وان ذهب اليه بعض النظار من الاوربيين — غير ما يقول ابن رشد . وأما ما يقول ابن رشد فهو ما ترى:

قال ابن رشد وكل من تابعه على رأيه ولم يخالفوا في ذلك أرسطو : ان الممكن لا وجود له في ذاته وانما يستفيد الوجود من غيره، وقد كانوا قالوا ان جميع ما في الكون ما عدا واجب الوجود المبرأ من المادة وغواشيها فهو ممكن، فكل ما في العالم فهو مستفيد الوجود من غيره ، فذلك الغير ان كان ممكنا فكيف يعطي الوجود وهو لا وجود له الا من غيره فاذا استمد منه مستمد فانما يستمد من فضل ذلك الوجود الذي جاءه من موجده الى أن ينتهي الى الوجود الاول، فكل وجود سطع على الممكنات فهو فائض من وجود الواجب فلا وجود الا من وجوده، أو كل وجود فهو شعاع لضياء وجوده، فاذا حرر المعنى من هذا على وجه أمكن عند العقل وجدته يرجع الى ما

قاله السيد الشريف من أئمة أهل السنة وغيره وهو

«ان الممكن ليس بشيء في ذاته ثم يكون شيئا بالايجاد. والايجاد لو حققته أمر اعتباري انتزاعي له منشأ في الواقع وذلك المنشأ هو ذات الموجد وماهية الموجود الممكن التي صارت شيئا بتلك العلاقات الاعتبارية بينها وبين موجدها وهي ما يسمونه تعلق القدرة بالمقدور. وماهية الممكن ليست بوجود ولا الوجود أمر موجود قائم بها. فاذاً ليس من وجود في نفس الامر الا وجود الواجب فكان الوجود الحقيقي واحدا وسائر ما يسمى وجودا أو موجودا فانما ينال ذلك بالاضافة الى الوجود الحقيقي. وأولى بالتسمية أن تكون مجازية من ان تكون حقيقية»

مع ذلك لا يزال صاحب هذا القول يعتقد بتجرد الواجب عن المادة والمدة الا ان من تلقفه منه توسع فيه حتى كان من ذيوله رأي القائلين بأن الموجد الاول روح سار في العالم واليه يرجع كل أشخاصه لفناء شخصيتهم فيه وما هو برأي ابن رشد ولا يعرفه

على ان الصوفية وهم المصرحون بوحدة الوجود المعبرون بالشهود أولا والفناء آخرا الناطقون في ذلك بما لم ينطق به احد سواهم لم يقولوا بزوال هويات النفوس زوالا حقيقيا، بل قالوا انها خالدة بعد مفارقة الابدان ولكنها تسعد في خلودها، باستغراقها في شهودها، وذهولها عن كل ما يشغلها عن مصدر وجودها، فهي غنية بعرفانه

عن معرفتها بنفسها ،وهو ما يعبر عنه بالفناء ولذته ، وهو معنى تقصر دون إيضاحه العبارات ، وان كفى في تعريفه لاهله أخفى الاشارات

ولعل الجامعة لا تعتب على الكاتب فيما كتب ؟ وفيما أجاب به من طلب ، فقد وفى حقا لها لو أغفله مع علمها بالقدرة عليه ، لحق لها أن توجه العتب اليه

هذا ما اردنا بجاز القول فيه متعلقا بفلسفة المتكلمين ورأي الفياسوف وسنتبعه بمقال آخر فيما حكمت به الجامعة من الكلام ، على الاضطهاد في النصرانية والاسلام ، ان شاء الله تعالى اه

﴿ تم المقال ﴾

﴿ تنبيه بعد تنبيه ﴾ ان بحث الاضطهاد في النصرانية والاسلام هو الذي سميناه (الاسلام والنصرانية ، مع العلم والمدنية) واجازنا الكاتب عليه ، رحمه الله تعالى

﴿ تأثير هذا المقال وتقريظه ﴾

يقول جامع هذا الكتاب وناشره : كتب هذا الامام الكبير مقاله في أيام معدودات ، فجاء كما ترى آية من الآيات البينات ، ولقد كان لنشره من التأثير في عالم العلم والدين ، ما لم نره لكلام أحد من الكاتبين ، طارت به اغتباطا قلوب المسلمين ، ولم يبخسه حقه فضلاء المسيحيين ، ورددت صداه المنعكس عن المنار ، بعض الجرائد في مصر وغيرها من الاقطار . قالت جريدة الوطن القبطية الغراء بعد ماذكرت انتقاد الجامعة في عدد ١٣ : ٢٤ « فهب المنار الاغر ينشر بالتوالي ردا مفحما طويل الاذيال لامام تغني كنيته عن التصريح باسمه . ضمنه تفنيد أقوال الجامعة بحجج دامغة قوية يأتي بالواحدة ثم يعقبها بالشرح والتطويل من التاريخ تارة وأقوال العلماء أخرى . ولا يزال المؤيد الاغر حتى الساعة يردد صدى هذه الفصول وإذاعة محتوياتها . والرد كما قلنا قوي الحجج ، متين العبارة ، لم يسبق فيه واضعه عالم قديم أو حديث » اه المراد منه

وجاء في العدد ٣٢٤ من جريدة المناظر المفيدة التي تطبع في سان باولو (البرازيل) وصاحبها من فضلاء السوريين المسيحيين بعد ذكر نقد الجامعة والرد عليه : « وقد طالعنا رده في مجلة المنار ورأينا

في قسم الرد الثاني أي الكلام على أية الديانتين أكثر تساهلا للعلم حججا حرية بالاعتبار، ورأينا أنه من المفيد أن يطلع المسيحي على رأي امام مسلم عصري في المسيحية فاخترنا نقله » ثم طفقت هذه الجريدة تنقل هذا المقال فصلا فصلا . وقد رأينا في آخر عدد وصل الينا منها مقالة وجيزة لاديب مسيحي ذكر فيها انتقاد الجامعة ثم قال : « رد عليها الرجل الاسلامي العصري بل رجل الاسلام في هذا الزمان .... ردا أثبت به أن الكنيسة المسيحية لم تتساهل قط للعلم والفلسفة فيستطاع أن يقال ان انتصار العلم في أوربا دليل على كون المسيحية أكثر من الاسلامية تساهلا، ووعد ببيان (لم يصلنا بعد) يرجع به انتصار العلم في أوربا الى أسبابه الحقيقية . فهل أصاب صاحب الجامعة في جعل تساهل المسيحية سببا لانتصار العلم في أوربة؟ إذا كانت الكنيسة المسيحية لم تتساهل بل اضطهدت العلم اضطهادا فالجواب « كلا لم يصب صاحب الجامعة» ثم ذكر الكاتب أن سبب القوة والعلم في أوربا يرجع الى طبيعة البلاد وما عرض عليها من ضيقها بسكانها الخ

وكتب الينا عالم مسيحي من سورية تعتد الجامعة برأيه وتفضله على أقرانه بحق ما نصه : « ما أسمى ما كتب الامام في العددين الاخيرين من المنار . يحق لنا أن نفتخر به المسلمون والنصارى معا. لا تحصروا الفخر فيكم أيها المسلمون بل فاسمحوا لنا ان نشاركم

كما يشارك البروتستانتي الكاثوليكي في انكلترا بالفخر بأحد علماء بريطانيا » وكتب الينا غيره بمعنى ذلك وان كان بعضهم انتقد بعض ما كتب في النصرانية وقال ان تلك الذنوب للكنيسة لا للدين المسيحي نفسه . ونحن المسلمين نقول بذلك ، نقول ان الصورة التي انقلبت اليها ديانة المسيح عليه السلام هي التي نشأ عنها ما تقدم ولو ظلت كما جاء بها المسيح لما كان شيء من ذلك

أما صاحب الجامعة فقد خيب حسن ظننا فيه ، ولم يرض باعتذارنا عنه بل أصر على طعنه بالاسلام ، وأضاف اليه الطعن بنا وبالامام ، فرددنا عليه في المنار غير مرة ، ثم مرت ثلاثة أشهر بعد ذلك وهذا شهر رابع ولم تصدر الجامعة فنعلم هل هي مصرة على الخصام ؟ أم ثابت الى الوفاق والوئام ؟ والذي هو أولى بها في دار الاسلام ومن لطيف الاتفاق أنه بعد ما كتب هذا المقال كله ونشر الكثير منه ظهر كتاب انكليزي فيه مقالة لكاتب انكليزي اسمه (مستر كوربت) يدافع فيه عن الاسلام و يشهد بفضله . فجاء قوله شاهدا لما كتب الكاتب عن تسامح الانكليز وتساهلهم

ونختم هذا التقريظ بأبيات أبيات من نظم أحمد أفندي الكاشف الشاعر المشهور بالاجادة يقرظ بها المقال مخاطبا لكاتبه وهي

سلاما حجة الاسلام فينا ورضوانا رجاء المسلمينا
عنيت بما كتبت فكان وحيا يؤيد وحي ملهمك المبينا

فلم تترك لمتهم مكانا يرى فيه المزاعم والظنونا
فما بطل يخوض الحرب فردا فما يدعو بآخر مستعينا
جهاداً في سبيل الله يفدي بمهجته المواطن أن تهونا
بأبقى منك آثارا وذكرا وقدرا في قلوب العالمينا
وكان يراعك المنصور سيفا وكان كتابك الدرع الحصينا
ملكت به معاقل عاليات نبت عنها سيوف الفاتحينا
وما ضر الضلال الخلق حتى نفعتهم وأوضحت اليقينا
فرفقا بالمكابر قد كفاه مجادلة وأوشك أن يدينا
ودعه في تأمله عساه يجيئك باعتراف المهتدينا
فلو سلكت ملوك الشرق يوما سلوكك بيننا دنيا ودينا
تمادى الحق متبعا مصونا وقام الملك ممتدا أمينا
وعاش التاج مؤتلقا رهيبا ودام العرش معتزا متينا
ومثلك لو تحكم مستبدا فقد ملأ الضمائر والعيونا

﴿ فهرس كتاب الاسلام والنصرانية ﴾

صفحة

٢ مقدمة ناشر الكتاب
القسم الاول في النصرانية
٧ اضطهاد العلم والمدنية في النصرانية
تقرير شبهة الجامعة على الاسلام
٩ الجواب الاجمالي عن شبهة الجامعة
١١ « التفصيلي « «
١٢ نفي القتال بين المسلمين لاجل الاعتقاد
١٤ تساهل المسلمين مع أهل النظر من كل ملة
١٦ طائفة من الحكماء والعلماء . الذين حظوا عند الخلفاء
المقصد من القسم الاول
٢١ طبيعة الدين المسيحي وأصوله
٢٢ الاصل الاول للنصرانية الخوارق
٢٣ « الثاني « سلطة الرؤساء
٢٤ « الثالث « ترك الدنيا
٢٦ « الرابع « الايمان بغير المعقول
٢٧ « الخامس « كون الكتب المقدسة حاوية

صفحة

كل ما يحتاج اليه البشر في المعاش والمعاد
٢٨ الاصل السادس للنصرانية التفريق بين المسيحيين وغيرهم
٢٩ نتائج هذه الاصول وآثارها
٣١ مبحث إحراق كتب البطالسة والمصريين بالاسكندرية
٣١ قتل هيباتي الرياضية المصرية
٣٣ مقاومة النصرانية للعلم
٣٥ مراقبة المطبوعات ومحكمة التفتيش
٣٨ اضطهاد المسيحية للمسلمين واليهود والعلماء عامة
٤٠ مقاومة الكنيسة للحقن تحت الجلد
مقاومتها تسهيل الولادة والسلطة وحرية الاعتقاد
٤١ مقاومتها الجمعيات العلمية والكتب
٤٣ البروتستانت أو الاصلاح
٤٤ الفصل بين السلطتين في المسيحية
٤٦ اعتقاد المسلمين في المسيح والمسيحية
القسم الثاني في الاسلام
٤٨ طبيعة الاسلام مع العلم بمقتضى أصوله
تمهيد للاصل الاول في بيان دعوتي الاسلام
٥٤ الاصل الاول للاسلام النظر العقلي لتحصيل الايمان

صفحة

٥٤ الاصل ٢ للاسلام تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض
٥٥ « ٣ « البعد عن التكفير
٥٦ « ٤ « الاعتبار بسنن الله في الخلق
٥٩ « ٥ « قلب السلطة الدينية
٦١ السلطان في الاسلام
٦٥ الاصل ٦ للاسلام حماية الدعوة لمنع الفتنة
٦٦ مقابلة بين الاسلام الحربي والمسيحية السلمية
٧٠ الاصل ٧ للاسلام مودة المخالفين في العقيدة
٧١ « ٨ « الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة
٧٢ وفيه بحث الصحة والرخص واباحة الزينة والطيبات والاقتصاد
٧٥ والنهي عن الغلو في الدين
٧٦ نتيجة عامة ذاتية
٨٠ نتائج هذه الاصول وآثارها في المسلمين
٨٢ اشتغال المسلمين بالعلوم الادبية ثم العقلية في الصدر الاول
٨٣ اشتغالهم بالعلوم الكونية في القرن الثاني
٨٤ انشاؤهم دور الكتب العامة والخاصة
٨٥ انشاؤهم المدارس للعلوم وكيفية التدريس
٨٨ علوم العرب واكتشافاتها

صفحة

٩٤ أخذ الخلفاء والامراء بيد العلم والعلماء
٩٥ ازالة شبهتين وبيان حقيقة الاضطهاد

القسم الثالث في المسلمين

٩٩ الاسلام اليوم — أو الاحتجاج بالمسلمين على الاسلام
١٠٦ رأي رنان الفيلسوف الفرنسي في الاسلام
١٠٧ الجواب عن الاحتجاج
١٠٨ جمود المسلمين وأسبابه
١١٣ مفاسد هذا الجمود ونتائجه
١١٣ جناية الجمود على اللغة
١١٥ » » » النظام والاجتماع
١١٨ » » » الشريعة وأهلها
١٢١ » » » العقيدة
١٢٥ الجمود ومتعلمو المدارس النظامية
١٢٦ جمود تلامذة المدارس الاجنبية
١٢٧ » » » الرسمية والاهلية

القسم الرابع في العلم والدين ومستقبل الاسلام والمسلمين

١٢٩ الجمود علة تزول
١٣٨ حرية العلم في أوربا الآن . ونسبتها الى الماضي والحاضر

في الاسلام
١٣٩ اقتباس مدنية أوربا من الاسلام . وأسباب ظهورها التام
١٣٩ السبب الاول الجمعيات
١٤١ « ٢ الضغط الديني
١٤٢ « ٣ الثورة
« ٤ ترك المسيحية
١٤٤ عود الى سماحة الاسلام
١٤٧ ملازمة العلم للدين . ودعوى التعصب في المسلمين
١٤٩ إهمال آثار السلف . وحال علوم الدين وطلابها
١٥١ متابعة العلم الاسلام ومباينته لسواه
١٥٣ الدعاة في الاسلام
١٥٤ المقلد دون المقلد — مقابلة بين المسلمين والمسيحيين
١٥٥ الاصلاح والمصلحون
١٥٧ الفريق بين التعصبين
١٥٩ رأي هانوتو الاخير في معاملة المسلمين
١٦١ سياسة الانكليز في التسامح
١٦٢ خاتمة المقال
١٦٤ ترجمة ابن رشد
١٦٥ تمهيد لمقالة الاستاذ الحكيم

المادة وخلق العالم
١٦٦ اتصال الكون بالخالق
١٦٨ طريق الاتصال
١٧٠ الخلود
دفع وهم عن فلسفة ابن رشد
والمتكلمين لاستاذ حكيم وفيلسوف عليم
١٧٢ فلسفة المتكلمين وآراؤهم في الوجود
١٧٧ خاتمة
١٧٨ فلسفة ابن رشد ورأيه في المادة
وخلق العالم
المادة وخلق العالم
١٨٠ تصوير مذهب الالهيين
١٨٢ طريق الاتصال
١٨٧ ما نقله فلاسفة أوربا عن ابن رشد
١٩٠ تنبيه بعد تنبيه
١٩١ تأثير هذه المقال وتقريظه

32

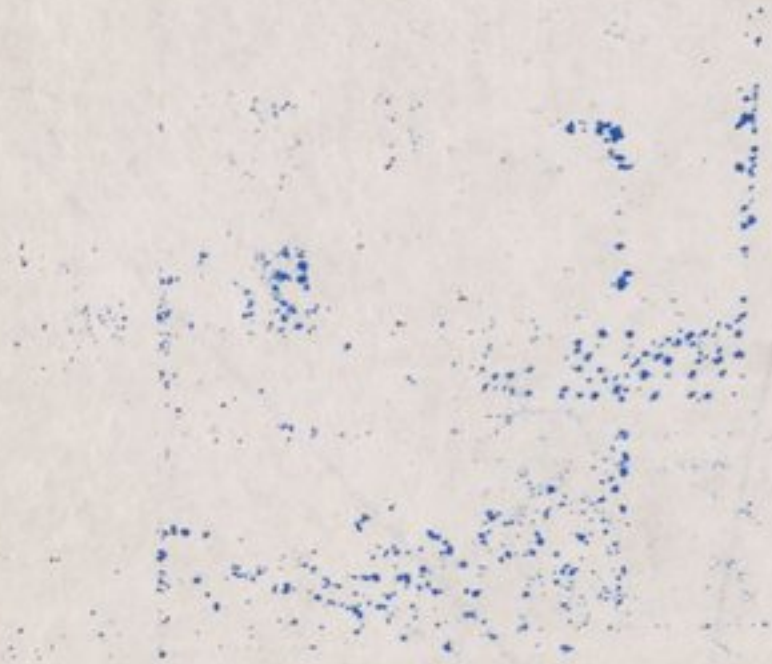

BP
163
M82
1922

5 MAY 1987